بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

عاش اليهود في شبه الجزيرة الأيبيرية قروناً عدة، قبل أن يفتحها المسلمون، وقد خضعوا خلال هذه المدة الطويلة للعديدِ من الأمم والأقوام الذين تعاقبوا على حكمها.

وقد كرههم أهل هذه البلاد وحكامها، وضيّقوا عليهم، وذلك ردّاً على كره اليهود لهم، واستعلائهم عليهم، واستهزائهم بمعتقداتهم، واستحلال كسب أموالهم بالرِّبا، وبالطرق غير المشروعة.

وقبيل الفتح الإسلامي للأندلس قام القوط الكاثوليك بتحويل اليهود إلى عبيد، وذلك بعد أن فشلوا خلال أكثر من مئة سنة من التضييق عليهم، في تحويلهم إلى نصارى مخلصين.

وعندما فتح المسلمون الأندلس، رفعوا الاضطهاد عن اليهود، وعاد معظم المنصّرين منهم إلى دينهم، وتعاملوا معهم على وفق الأحكام الشرعيّة الخاصّة بأهل الذمة، فسمحوا لهم بالبقاءِ على دينهم، وممارسة شعائرهم، وتركوا لهم حريّة السكن بين المسلمين، أو في أحياء خاصّة بهم، وأتاحوا لهم مزاولة ما شاءوا من أنواعِ النشاط الاقتصادي، وحفظوا أرواحهم وأموالهم وحقوقهم، فشهدوا عدلاً وتسامحاً وحريّة لم يعرفوها من قبل، وعاشوا أكثر من ثمانية قرون ينعمون بالحكم الإسلامي، ورأوا حضارة المسلمين السامقة، المتميّزة بجمعها بين الإيمان والعلم، واختلطوا بمجتمعهم الفريد، الذي يُقبِلُ أبناؤهُ على العلم والتعلُّم والثقافة والأدب، والبناء والتطوير والإبداع، إقبالاً كبيراً، ويعدّون ذلك كلّه عبادة يتقرَّبون بها إلى الله تعالى.

فانبهر يهود الأندلس بكلِّ ما لدى المسلمين، وحاولوا تقليدهم، فتكلّموا بلغتهم، وتعلّموا أدبهم وفكرهم وثقافتهم وعاداتهم، وتحفّزوا لخدمةِ لغتهم العبريّة المندثرة، فوضعوا لها قواعِد على طريقة قواعِد اللّغة العربيّة، وكتبوا بها شعراً موزوناً بأوزان الشعر العربي، وأدخلوا إليها فنوناً لم تكن موجودة إلاّ في اللّغة العربيّة، فأصبح لهم نحو وشعر وأدب، ما زالوا إلى اليوم يعدّونه العصر الذهبي للأدب العبري.

كما ظهر بينهم مفكرون وفلاسفة، مقلِّدون ومتأثِّرون بالمسلمين وفكرهم، ووضعوا مؤلفات فكرية ودينية، ما تزال في نظرهم أفضل ما أنتجه الفكر اليهودي.

وبلغ إحسان المسلمين إلى يهود الأندلس حدّاً جعلهم يعينون منهم في دولتهم الوزراء والسفراء وكبار الموظفين.

وكان ردُّ يهود الأندلس على تسامح المسلمين وإحسانهم إليهم كيداً وتآمُراً ظهر واضحاً في عصر الطوائف، حيث استغلّوا مناصبهم، وتطاولوا على المسلمين، وسخروا من دينهم، وتآمروا

لإقامة دولة يهودية لهم في الأندلس، وقدّموا المساعدة للأسبان في هجماتهم الصليبية على الأندلس، كما شاركوا في التنكيل بمسلمي المدن الأندلسيّة التي كانت تسقط في يد الأسبان.

وهناك أسبابٌ عديدة دفعتني إلى دراسة هذا الموضوع، وجعلتني أقبل عليه برغبةٍ وشغفٍ وتحدٍّ لكل الصعاب التي توقَّعتها وحُذِرتُ منها.

وأهمُّ هذهِ الأسباب:-

1- خلوُّ المكتبة العربية من دراسة أكاديمية علميّة شاملة، تغطّي هذا الموضوع، بالرَّغم من أهميته.

2- الرغبة في معرفة متى وكيف استقرَّ اليهود في شبه الجزيرة الأيبيريّة؟ وكيف عاملهم حكامها وسكانها على مرِّ العصور؟ وهل كان الفتح الإسلامي لهذه البلاد منقذاً لليهود من الاضطهاد الديني؟ وأنّه حال دون انقراضهم نهائياً من الأندلس على أيدي القوط الكاثوليك؟

3- للتعرُّف على موقف اليهود من الفتح الإسلامي للأندلس، وهل كان لهم دورٌ مهمٌ فيه كما يزعم اليهود اليوم؟

4- الرغبة في التعرُّف على مواطن استقرار اليهود في الأندلس، وأماكن تجمعاتهم الرئيسة فيها، وهل أُجبروا على السكن في أحياء خاصّة؟ وما هو حجم الوجود اليهودي في المدن الأندلسيّة؟

5- الرغبة في التعرُّف على الأوضاع السياسيّة والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والثقافيّة لليهود الذين عاشوا أكثر من ثمانية قرون تحت حكم المسلمين في الأندلس، ولا سيما إنَّ كثيرا ً من المثقفين اليهود في عصرنا يعتقدون أنَّ أجدادهم لم يحصلوا عبر تاريخهم الطويل على معاملة أفضل من المعاملة التي وجدوها في الدولة العربية الإسلاميّة في الأندلس، وأنّه لم تتهيأ لهم بيئة علميّة وثقافيّة وحضاريّة مزدهرة ومؤثرة مثلما تهيأ لهم في الأندلس.

6- لمعرفة موقف السلطة الإسلاميّة في مختلف العهود من اليهود في الأندلس، وكذلك موقف اليهود منها، وما هو مدى التزام حكام الأندلس بمنهج الإسلام في التعامل مع اليهود؟ ومدى التزام اليهود بشروط عقد الذمّة؟

7- لمعرفة هل فعلاً حدثت محاولة لليهود في عصر الطوائف لإقامة دولة يهودية في إحدى مدن الأندلس؟ وما هو ردُّ فعلِ المسلمين على ذلك؟

8- للتعرُّف على الشخصيات اليهوديّة التي حصلت على وظائف مهمة في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، وهل قدَّر هؤلاء إحسان المسلمين اليهم؟ وكيف استغلّوا وظائفهم لخدمة مصالح اليهود داخل وخارج الأندلس؟ وما هو موقف مسلمي الأندلس من قيام بعض حكامهم بتنصيب اليهود في وظائف حكوميّة مهمة؟

9- الرغبة في التعرُّف على عادات وتقاليد وسلوك وأخلاق يهود الأندلس، وهل كانت لهم علاقات اجتماعية بالمسلمين؟ وهل تأثروا بالمجتمع الإسلامي الذي عاشوا في وسطه أكثر من ثمانية قرون؟

10- للتعرُّف على التنظيم الإداري والمالي للجالية اليهودية في الأندلس.

11- للتعرُّف على المستوى المعيشي لليهود في الدولة العربية الإسلاميّة في الأندلس، والمجالات الاقتصادية التي عملوا فيها.

12- للتعرف على فكر وثقافة وأدب وعلوم اليهود في الأندلس، وهل تأثروا بما لدى المسلمين؟ وما هو حجم ذلك الأثر؟ وهل كان يهود الأندلس من المبدعين والمؤثرين في النهضة العلمية في الأندلس، كما يدّعي العديد من الكتاب اليهود المعاصرين؟

13- للتمكن من عقد مقارنة بين حكم المسلمين لليهود في الأندلس لأكثر من ثمانية قرون، وبين حكم اليهود للمسلمين في فلسطين، خلال نحو نصف قرن من الاحتلال.

14- للتعرُّف على خلاصة تجربة طويلة من الحكم الإسلامي لليهود في الأندلس، للإفادة منها مستقبلاً عندما يتحقق وعد الله، ويعود اليهود من جديد أهلُ ذمّةٍ في ظلِّ دولة الإسلام.

وقد جاء البحث في مقدمة وستة فصول وخاتمة. أمّا المقدمة، فقد تضمنت لمحة موجزة عن الموضوع، والأسباب التي دفعت الباحث لدراسته، وأهم التساؤلات التي ستجيب عنها الدراسة، ثم تحليلاً لأهم المصادر التي اعتمدت عليها.

وأمّا الفصل الأول فقد تناول بداية الاستقرار اليهودي في أسبانيا، وأوضاع اليهود فيها تحت حكم الرومان والوندال والقوط الأريوسيين، والقوط الكاثوليك.

وقد بحث الفصل الثاني مواطن الاستقرار اليهودي في الأندلس، وبيّنَ مواقع الأحياء اليهوديّة في أهم المدن الأندلسيّة.

وقدَّم الفصل الثالث دراسة لموقف السلطة الإسلاميّة في مختلف العهود من اليهود في الأندلس، وموقف اليهود منها.

وكان الفصل الرابع بعنوان "الحياة الاجتماعيّة لليهود في الأندلس"، حيثُ قدَّمَ وصفاً للطائفة اليهوديّة في الأندلس، وتحدَّث عن عاداتهم وتقاليدهم في مجالاتٍ عِدّةٍ، كالمأكل والملبس والزواج، وبحث في العلاقات الاجتماعية بين مسلمي ويهود الأندلس.

ودرس الفصل الخامس التنظيم الإداري للطائفة اليهوديّة في الأندلس، وكذلك النشاطات الاقتصاديّة التي مارسها اليهود هناك.

أمّا الفصل السادس فقد كان بعنوان "الحياة الثقافيّة لليهود في الأندلس"، حيث بحث في التربيّة والتعليم عند يهود الأندلس، وفي نشاطهم اللغوي والأدبي والفكري والعلمي.

وقد انتهى البحث بخاتمة تضمنت أهمَّ النتائج التي توصّلت إليها الدراسة، وكذلك التوصيات التي يوصي بها الباحث.

تحليل المصادر

لا يستطيع الباحث في التاريخ أن يقدم صورة واقعية عن الموضوع الذي يبحث فيه، إلا إذا توفرت له الوثائق التاريخية والمصادر الأولية التي تحتوي على المعلومات والحقائق الكافية عن هذا الموضوع.

وفي بحثي لموضوع اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، رجعت إلى عدد كبير من الوثائق والمصادر الإسلامية، التاريخية والأدبية والجغرافية والفقهية، وإلى كتب النوازل والحسبة والتراجم، فوجدت فيها معلومات تتفاوت في درجة أهميتها بالنسبة لموضوع الدراسة، لكنها بصورة عامة معلومات قليلة، ولا تكفي لتغطية الموضوع من جميع جوانبه، والسبب في قلتها يرجع إلى أن الكثير من مؤلفي المصادر الإسلامية، لم يفصلوا في الحديث عن الجماعات غير المسلمة كاليهود والنصارى، وإنما ذكروهم عرضاً أثناء السرد التاريخي المفصل لأخبار الأمراء والفتوحات والانتصارات والهزائم، أو خلال إجاباتهم عن بعض النوازل، أو في بعض كتبهم الجغرافية والأدبية.

ولكي نستكمل الموضوع، وحتى لا تكون الدراسة أحادية المصادر، تم الرجوع إلى المصادر الأجنبية، والوثائق والمصادر اليهودية، وكذلك إلى المراجع الحديثة، والموسوعات اليهودية التي اعتمدت على وثائق ومصادر أسبانية ويهودية، لم نتمكن من الوصول إليها.

وطبيعي أن تحتوي مصادر اليهود ومراجعهم على معلومات لم نجدها في المصادر الإسلامية، لأن مؤلفيها معنيون بتسجيل أخبار وتفاصيل لا تعني المؤلفين المسلمين.

وقد تعاملت مع ما جاء في المصادر والمراجع اليهودية والأجنبية بحذر شديد، فلم أقبل إلا ماله أصل في مصادرنا، أو ما اعتقدت أنه لا مصلحة لهم في وضعه، كما رددت على الكثير من الروايات والآراء، وبينت سبب رفضي لها.

وفي ما يأتي تحليل لأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها الدراسة.

أولاً: المصادر الإسلامية

1- "أخبار مجموعة في فتح الأندلس"، لمؤلف مجهول (من أهل القرن الرابع أو الخامس الهجري).

أفدت منه في مواضع عدة، إذ يحتوي على معلومات مهمة، تتعلق باليهود، كوجودهم في العديد من المدن الأندلسية ،واستخدام المسلمين لهم في الإسهام بحراسة المدن التي يتم فتحها، حيث كانوا يتركونهم مع طائفة من المسلمين للحراسة، ويواصل بقية الجيش الإسلامي عمليات الفتح .

2- "التبيان"، للأمير عبد الله بن بلقين، سليل أسرة بني زيري، وآخر أمرائها (توفي بعد سنة 483هـ=1090م)، حققه ونشره: إ. ليفي بروفنسال، تحت عنوان: "مذكرات الأمير عبد الله، آخر ملوك بني زيري بغرناطة".

أفدت منه في دراسة اليهود والسلطة في عهد الطوائف، حيث نقل صورة من الداخل عن الأوضاع التي سادت قصور الأمراء الزيريين، وأوضح الأسباب التي أدت بهم إلى اتخاذ وزراء من اليهود، وصور عبد الله عائلة ابن نغدله أحسن تصوير، فسجل ما يعرفه عن إسماعيل وابنه يوسف، وأوضح المؤامرات التي قام بها الأخير لتدعيم سلطته، وما وصل إليه من تجبر وتسلط، أدى في النهاية إلى ثورة مسلمي غرناطة عليه وقتله.

3- "الأحكام الكبرى"، لأبي الأصبغ عيسى بن سهل (توفي في غرناطة سنة 486هـ=1093م).

وقد رجعت إلى مجموعة من وثائق هذا الكتاب التي استخرجها وحققها ونشرها محمد عبد الوهاب خلاف، تحت عنوان "وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة في الأندلس، مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل".

وبالرغم من أن هذه الوثائق تركز على نصارى الأندلس، إلا أنني أفدت من إشاراتها القليلة عن اليهود في دراسة الاستقرار اليهودي في الأندلس، حيث جاء بوثيقة تبين أن بعض اليهود جاوروا المسلمين في مساكنهم، كما أمدت وثائق أخرى البحث بمعلومات مهمة عن الحياة الاجتماعية ليهود الأندلس.

4-"الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت: 542هـ=1147م).

وهي موسوعة أدبية وتاريخية ضخمة، وقد وجدت فيها معلومات مهمة عن شخصيات يهودية بارزة في عصر الطوائف كإسماعيل بن نغدله، وولده يوسف اللذان تعاقبا على منصب الوزارة في غرناطة في عهد بني زيري، وأبي الفضل حسداي وزير المقتدر بن هود في سرقسطة، وقد أفدت من هذه المعلومات في مبحث اليهود والسلطة في عصر الطوائف.

5- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، لأبي عبد الله محمد بن محمد الحمودي المعروف بالشريف الإدريسي (ت : 564 هـ=1160م).

ويحتوي الكتاب على مادة جيدة عن استقرار اليهود في الأندلس، حيث أشار إلى كثرة اليهود في بعض المدن الأندلسية كأليسانة وطركونة، وذكر تفصيلات مهمة عن يهود أليسانة

وغناهم وانفرادهم بالسكن داخل أسوارها، إضافة إلى شذرات عن اليهود في عهد المرابطين وعلاقتهم بالسلطة.

6- "تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين"، لابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد بن أحمد، (ت: 594هـ=1198م).

أفدت منه في دراسة موضوع اليهود والسلطة في عهد الموحدين، وفي التعرف على سياسة الموحدين الحازمة مع اليهود، وموقف اليهود منهم.

وهو يحتوي على أخبار مهمة عن اليهود في عهد الموحدين، كتظاهرهم بالإسلام، وارتيادهم مساجد المسلمين، وشك الخليفة المنصور بإسلامهم، وفرضه عليهم لباساً خاصاً، لكي يميزوا به، وقد أفدت من كل ما أورده عن هذا الموضوع في التعرف على سياسة الموحدين مع اليهود.

7- "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، لابن أبي أُصيبعة (ت: 668هـ=1269م).

موسوعة فريدة خاصة بالأطباء، اشتملت على أخبار بعض أطباء يهود الأندلس، فذكرت أعمالهم ومؤلفاتهم، وعلاقتهم بالمجتمع الإسلامي، وقد استخلصتُ منه حقائق مهمة، لا يمكن أن نجدها في مؤلفات أخرى.

8- "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، لابن عذاري المراكشي (كان حياً عام 712هـ=1312م).

أفادني هذا الكتاب في أخباره عن الوزير اليهودي يوسف بن نغدله، وسيرته ومقتله، وهو المصدر الوحيد الذي وجدته يذكر صراحة محاولة ابن نغدله إقامة دولة يهودية في مدينة المرية. كما أفادني في بعض الحوادث التي كانت قرطبة مسرحاً لها، كثورة العامة على اليهود سنة (529هـ=1134م)، وفي ذكره للجرائم التي ارتكبها يهود بلنسية ضد المسلمين، عندما سقطت هذه المدينة في يدِ الأسبان.

9- "الإحاطة في أخبار غرناطة"، لابن الخطيب، لسان الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله (ت : 776هـ=1374م).

احتوى على معلومات عن الوزير اليهودي ابن نغدله، ومقتله، نقلها عن ابن عذاري بتصّرف طفيف، وهو يذكر المكان الذي دُفِن فيه، حيث كان اليهود في وقته يعرفون قبره.

10- "أعمال الأعلام" لابن خطيب.

تعرَّض المؤلف لدولة بني زيري وأمرائها، ودور اليهود فيها في عهد وزارة ابن نغدله، وأضاف إلى المعلومات التي نجدها في كتاب الإحاطة، القصيدة التي قالها أبو إسحاق الإلبيري محرّضاً باديس والمسلمين على الوزير اليهودي وعماله من اليهود المتسلّطين.

11- "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب"، لأحمد بن يحيى الونشريسي (884–914هـ=1479–1508م).

ويعد هذا الكتاب موسوعة عملية حية للفقه المالكي، وهو مجموعة التجارب المعاشة الموثقة، وليس دراسة نظرية أو افتراضية لمسائل فقهية. ولذلك فقد اعتمدت عليه في مواطن الاستقرار اليهودي في الأندلس، وفي بعض المسائل الاجتماعية كملابس اليهود وأعيادهم، وما يقدمونه فيها من هدايا لبعض جيرانهم المسلمين.

12- "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت: 1041هـ=1631م).

أفدت من القسم الذي خصصه للشعراء اليهود في الأندلس الذين كتبوا شعرهم باللغة العربية، حيث ترجم لهم، وسجَّل أخبارهم، وأورد أبياتاً من أشعارهم تدل على تمكّنهم من اللغة العربية. كما أفدت أيضاً من الشذرات المهمة التي وردت في الكتاب عن أخبار اليهود في الأندلس.

ثانياً: المراجع العربية والمترجمة

وأهمها :-

1- "اليهود في الأندلس"، لمحمد بحر عبد المجيد (مدرس اللغة العبرية بجامعة عين شمس).

نشر هذا الكتاب سنة 1970م، وقد ركز المؤلف فيه على النشاط الأدبي ليهود الأندلس من الفتح وحتى نهاية عصر الموحدين، وَدوّنَ فيه عدداً من قصائدهم العبرية بعد أن ترجمها إلى العربية، لكنه لم يوثق في بعض الأحيان المعلومات التي جاء بها، والظاهر أنّ معظم مصادره يهودية عبرية. وقد أفدت من بعض هذه القصائد، ومن بعض ترجماته لأدباء وشعراء يهود في الأندلس.

2- "تاريخ الفكر الأندلسي"، للمستشرق الأسباني بالنثيا.

يشتمل هذا المؤلف الضخم على معلومات مهمة عن عدد كبير من المفكرين اليهود الذين نبغوا في الأندلس، إذ تطرق إلى ثقافتهم، وتأليفهم باللغة العربية، ودورهم في نقل فكر المسلمين وحضارتهم إلى أوربا. وقد أفدت منه في الفصل السادس الذي خصَّصته للحياة الثقافية لليهود في الأندلس.

3- "دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية"، لجوايتاين.

مجموعة من المقالات المهمة المتعلِّقة بالتاريخ الإسلامي، وقد أفدت من المعلومات التي استقاها المؤلف من دفين الجنيزة بالقاهرة، هذا الدفين الذي يشتمل على وثائق يهودية، يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى، وبعض هذه الوثائق عبارة عن مراسلات بين يهود يقيمون في الأندلس، وآخرين يقيمون خارجها، وقد وَجَدَتْ هذه الوثائق طريقها إلى جنيزة القاهرة، لأن اليهود اعتادوا أن يحتفظوا بأوراقهم ومراسلاتهم القديمة في مكان خاص داخل معابدهم، لاعتقادهم بحرمة رميها أو حرقها، وقد قدَّمت هذه الوثائق معلومات قيِّمة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية ليهود الأندلس، لم نجدها في كتب التاريخ.

ثالثا ً: المراجع الأجنبية

وأهمها:

1- كتاب: "THE JEWS OF MOSLEM SPAIN"،

ومؤلفه هو : ELIYAHU ASHTOR، أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة العبرية في القدس، وقد كتبه بالعبرية، وترجمه إلى الإنجليزية AARON KLEIN و MACHLOWITZ KLEIN.

وهو كتاب ضخم يتكون من ثلاثة مجلّدات، بحث فيه هذا اليهودي ذو الأصل الأندلسي تاريخ اليهود في الأندلس المسلمة من جميع جوانبه، وقد اعتمد على مصادر إسلامية ويهودية وأسبانية، وكانت إحدى أهم مصادره اليهودية مؤلفات فقهية يهودية تشبه كتب الفتاوى والنوازل عند المسلمين، كتبها أحبار يهود في الأندلس وفي عصور مختلفة، كما رجع إلى خرائط أسبانية قديمة للمدن الأندلسية، تظهر مواقع الأحياء اليهودية فيها، كما زار هذه المدن، وحاول أن يتعرَّف على مواقع اليهود فيها في العصر الإسلامي.

ويمتاز كتاب آشتور بالتوثيق، فهو يُشير دائماً إلى مصدر المعلومة التي يذكرها، أما سلبيات آشتور وكتابه فكثيرة، نذكرُ منها أنه يأتي بتفصيلات كثيرة، خارجة تماماً عن الموضوع، فإذا أراد أن يتحدَّث عن موقف يهود الأندلس من الفتح الإسلامي، نجده يسهب ويُطنب في الحديث عن فتح المسلمين للأندلس، وإذا ذُكرت علاقة ليهودي أندلسي مع يهودي في مصر أو فلسطين أو إيطاليا أو الخزر نجده يترك الأندلس، وينتقل إلى تفاصيل تاريخ اليهود في تلك البلدان، كما أنه يكتب بأسلوب إنشائي ودعائي لليهود، وهو يحاول أن يلتقط أخبارهم القليلة، ليبرزهم ويُضخِّم مكانتهم وأثرهم في الأندلس، وهذا كُلُّه يُفسِّر السبب في ضخامة كتابه، كما أنَّه لم يطلع على كثيرٍ من المصادر الإسلامية، ولم يستطع الخوض في كتب الفقه الإسلامي والنوازل والحسبة.

وقد تعاملتُ مع معلوماته بحذر، فلم أسجِّل إلا ما رأيت أن له أصلاً في مصادرنا، وما اعتقدت أنها معلومات عادية لا مصلحة له في وضعها، كمواقع أحيائهم وأسماء أحبارهم وقادتهم، وطريقة تنظيمهم. وهي معلومات وثقها، وكنتُ في كثيرٍ من الأحيان أسجِّل المصدر الأجنبي الذي نقل عنه هذه المعلومات. وقد توقفتُ عند العديد من آرائه، وناقشتها ورددتها، وحاولتُ أن أقدِّم بحثاً يجمع فقط الحقائق التي ذكرتها المصادر الإسلامية واليهودية والأسبانية، ويناقشها مناقشة علمية موضوعية غير متحيزة.

2- " TEXTS AND STUDIES IN JEWISH HISTORY AND LITERUTURE"،

ومؤلفه هو : JACOB MANN.

وهو كتاب وثائقي يتكوَّن من مجلَّدين ضخمين جمع فيه المؤلِّف عدداً كبيراً من الوثائق التاريخية اليهودية المهمة، ووضع صوراً لها، وهي مكتوبة إمّا باللغة والحروف العبرية، أو بحروف عبرية ولغة عربية، وبَيَّن أماكن وجود هذه الوثائق وأرقامها في المكتبات والجامعات الأجنبية، وقد أفدت من هذه الوثائق في فصل اليهود والسلطة، وبالذات عند الحديث عن اليهودي حسداي بن شبروط، الذي حصل على منصب مهم في حكومة الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر، واستغلَّه لمساعدة اليهود داخل وخارج الأندلس، حيث وجدتُ فيه صورة نص الرسالة التي بعث بها يهود جنوب إيطاليا إلى حسداي، يشرحون له معاناتهم تحت الحكم البيزنطي، ونص الرسالة التي بعث بها حسداي إلى الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع، مع رسولي الإمبراطور إلى الخليفة الناصر، ويرجوه فيها أن يرفع المعاناة عن يهود إمبراطوريته، وكذلك نصّ الرسالة التي بعث بها يهود جنوب فرنسا إلى حسداي ليتدخل لدى حكامهم كي يحسنوا معاملتهم.

3- كتاب "LETTERS OF MEDIEVAL JEWISH TRADERS"،

ومؤلفه هو: GOITEIN, SOLOMON, DOB FREITZ.

وهو كتاب وثائقي يحتوي على عدد كبير من المراسلات بين التجار اليهود في العصور الوسطى في منطقة حوض البحر المتوسط، وقد استخرجها جوايتاين من جنيزة القاهرة، وقام بنشرها، وقد أفدت من المراسلات الخاصة بتجار يهود أندلسيين في التعرُّف على نشاطهم الاقتصادي، وجوانب من حياتهم الاجتماعية، وحصلت منها على معلومات وحقائق مهمة لم أجدها في مصادرنا الإسلامية.

4- "THE HISTORY OF THE JEWS OF SPAIN AND PORTUGAL"

ومؤلفه هو: E.H. LINDO، وقد نشره أول مرَّة في سنة 1848م.

والكتاب يتناول تاريخ اليهود في أسبانيا منذ وجودهم فيها، وحتى طردهم منها على يدِ الأسبان، وهو يركز على تاريخهم تحت حكم النصارى الأسبان.

وقد أفدت منه في التعرُّف على آراء اليهود بخصوص بداية وجودهم في أسبانيا، وفي التعرُّف على أوضاعهم تحت حكم القوط الكاثوليك، حيث نشر النصوص الكاملة لقوانين المجالس الكنسية القوطية التي صدرت ضدَّ اليهود.

الفصل الأول

اليهود في أسبانيا قبل الفتح الإسلامي

المبحث الأول: الوجود اليهودي في أسبانيا.

المبحث الثاني: اليهود في أسبانيا زمن تحول القوط إلى الكاثوليكية.

المبحث الثالث: اليهود تحت حكم القوط الكاثوليك.

المبحث الأول

الوجود اليهودي في أسبانيا

اتفقت المصادر التاريخية على قدم الوجود اليهودي في أسبانيا[*]، لكنها اختلفت في تحديد زمان وطريقة وصولهم إليها. فأوّل وصول يهودي إلى تلك البلاد، تحدثت عنه المصادر الإسلامية، يعودُ إلى عهد الملك الأسباني إشبان، الذي تقول إنه شارك مع نبوخذنصر في فتح القدس سنة (586 ق.م)، ثم عاد إلى بلاده يحملُ معه مئة ألف أسير يهودي. وتقدم المصادر الإسلامية تفاصيل متشابهة عن هذا الموضوع[1]. ومن ذلك قول الحميري نقلاً عن الرازي[**]: "أول من سكن الأندلس بعد الطوفان على ما يذكره علماء قوم عجمها يعرفون بالأندلش بالشين معجمة، بهم سمي البلد ثم عرب، وكانوا أهل تمجس، فحبس الله تعالى عنهم المطر، حتى غارت عيونها، ويبست أنهارها، فهلك أكثرهم، وفر من قدر على الفرار منهم، فأقفرت الأندلس، وبقيت خالية مئة عام، وملكهم إشبان بن طيطش، وهو الذي غزا الأفارقة، وحصر ملكهم بطالقة ونقل رخامها إلى إشبيلية، وبه سميت فاتخذها دار مملكة، وكثرت جموعه، فعلا في الأرض، وغزا من إشبيلية إيليا [القدس]، بعد سنتين من ملكه، خرج إليها في السفن، وهدمها، وقتل من اليهودِ مئة ألف وأسترقّ مئة ألف، وفرق في البلاد مئة ألف، وانتقل رخام إيليا وآلاتها إلى الأندلس. والغرائب التي أصيبت في مغانم الأندلس، كمائدة سليمان التي ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة، وقليلة الدر التي ألفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة، وغيرها من الذخائر، كانت مما حازه صاحب الأندلس من غنيمة بيت المقدس، إذ حضر فتحها مع نبوخذنصر[*]"[2].

---

[*] لقد فضلت استخدام كلمة "أسبانيا" في هذا الفصل فقط. لأنَّ هذا الاسم أطلق على شبه الجزيرة الأيبيرية منذ عهد إشبان الذي حدث في عهده أول استقرار لليهود في هذه البلاد، كما أوضحت ورجحت في موضوع آخر من هذا الفصل، واستخدام كلمة "الأندلس" عند الحديث عن هذه البلاد، بعد الفتح الإسلامي لها، لأنه الاسم الذي استخدمه المسلمون.

[1] ينظر: البكري، أبو عبيد، المسالك والممالك (القسم الخاص بالأندلس وأوروبا)، تحقيق: عبد الرحمن الحجي، (بيروت، دار الإرشاد، ط1، 1968م)، ص109-111؛ أبو محمد الرشاطي وابن الخراط الإشبيلي، الأندلس في اقتباس الأنوار، وفي اختصار اقتباس الأنوار، تقديم وتحقيق: إيميليو مولينيا، وخاثينو بوسك ميلا، (مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، 1990م)، ص102؛ ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، وإ. ليفي بروفنسال، جـ2، (بيروت، دار الثقافة، د. ت)، ص2؛ العذري، أحمد بن عمر، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، (مدريد، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، 1965م) نشر تحت عنوان "نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك"، ص97؛ ابن الشباط، محمد بن علي، صلة السمط وسمة المرط، تحقيق: أحمد مختار العبادي، (مدريد، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، 1971م)، ص139، نشره تحت عنوان: "تاريخ الأندلس لابن الكرديوس، ووصفه لابن الشباط، نصان جديدان".

[**] هو أحمد بن محمد الرازي، الجغرافي الأندلسي المتوفى سنة (324هـ=936م). وقد صرَّح ابن الشباط باسمه عندما نقل عنه هذه الرواية. عن تاريخ وفاة أحمد بن محمد الرازي. ينظر: البكري، المسالك والممالك (القسم الخاص بالأندلس وأوربا)، ص70 (هامش المحقق)، وعن نقل ابن الشباط هذه الرواية عنه. ينظر : ابن الشباط، صلة السمط، ص139.

[*] نبوخذنصر أو نبوخت نصر (NEBUCHADNEZZAR): أحد ملوك الكلدانيين الذين سكنوا جنوب العراق، توفي سنة 561 قبل الميلاد. ينظر البكري، المسالك والممالك، (القسم الخاص بالأندلس وأوربا)، ص111 (هامش المحقق).

[2] الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، (القاهرة، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2، 1980م)، ص33-34.

وقبل الدخول في مناقشة ما جاءت به مصادرنا، نعرض ما ورد في المصادر اليهودية والأسبانية عن هذا الموضوع. فالمصادر اليهودية تذكر أن عدداً من العائلات اليهودية الشهيرة في الأندلس تقول: "إن أجدادهم جاءوا إليها أسرى مع إشبان في زمن التدمير الأول للهيكل، مثل عائلة المؤرخ اليهودي إبراهيم بن داود[1] في أليسانة[2]، والعائلات التي تنسب نفسها إلى النبي داود عليه السلام في إشبيلية (SEVILLE) مثل عائلة أبرابانيل.

وتناقل اليهود الأندلسيون خلال الحكم الإسلامي للأندلس روايات كالتي سجلها وقبلها إسحاق أبرابانيل في تفسيره لإصحاح الملوك، والتي تُبيّنُ أن أوائل المستوطنين اليهود لمدينة طليطلة كانوا الأسرى من قبائل يهوذا وبنيامين الذين جاءوا مع إشبان وبيروس (PIRUS)، المشارِكَيْن مع نبوخذنصر في فتح القدس[3].

ويقول يهود غرناطة: "إن وجودهم فيها يرجع إلى زمن نبوخذنصر وإشبان، وأنهم هم الذين سموها بهذا الاسم الذي يعني بالأسبانية القديمة "رُمانة"[4].

وتقدم بعض الدراسات اليهودية افتراضات وتوقعات عن زمن الوصول اليهودي إلى أسبانيا، منها أنهم ربما نزحوا إليها خلال الصراعات التي حدثت في زمن القضاة (1125-1025ق.م)، أو خلال الحروب بين مملكتي يهودا وإسرائيل (931-724ق.م)[5]، أو أنهم من سلالة السفراء الذين بعث بهم النبيان داود وسليمان عليهما السلام للإقامة في أسبانيا، وأنّ حيرام مسؤول كنوز سليمان قد توفي هناك[6].

---

(1) إبراهيم بن داود: هو المؤرخ اليهودي الوحيد الذي برز في الأندلس، وقد عاش من سنة (504-576هـ=1110-1180م)، وكتابه الوحيد الذي ألفه، واحتوى على جانب تاريخي كان بعنوان: (هكبالا) بمعنى "التصوف"، ولم يتناول فيه تاريخ الأندلس، بل ركز على تاريخ كتابة التلمود.
ينظر:
SEMON DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS FROM ROMAN EMPIRE TO THE EARLY MEDIEVAL PERIOD, (NEW YORK,), VOL.2, P.756; YITZHAK BEAR, A HISTORY OF THE JEWS IN CHRISTIAN SPAIN, (PHILADELPHIA), VOL.1, P.32.

(2) HAIM BEINART, LUCENA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, (JERUSALEM, 1972), VOL.11, P.550.

(3) EDITORIAL STAFF, ENCYCLOPEDIA JUDAICA (ED) SEVILLE, ENCYCLOPEDIA JUDAICAL, VOL.14, P.1201.

(4) BEINART, GRANADA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.7, P.852.

(5) E.H. LINDO, THE JEWS OF SPAIN AND PORTUGAL (NEW YORK), P.6.

(6) ظاظا، حسن، "اليهود في أسبانيا الإسلامية"، مجلة الفيصل، ع26، (جمادى الآخرة، 1410هـ، نوفمبر-ديسمبر، 1994م)، ص38. هناك أسطورة يهودية تقول بأنه عُثر في مدينة مورفيدرو (MURVIEDRO) الواقعة الآن في بلنسية والمسماة ساغونتو (SAGUNTO)، على شاهد قبر يحمل كتابة عبرية هي: المسؤول عن خزينة الملك سليمان، الذي جاء لجمع الجزية ومات.
ينظر: BEINART, MURCIA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.12, P.531; ISAAC, BROYDE, SPAIN, THE JEWS ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.484.

ولم يقدم أصحاب هذه المزاعم دليلا ً عليها. وتصنفها بعض الدراسات اليهودية الحديثة ضمن الأساطير التي لا دليل على صحتها.

وقد نقل إلينا (لندو) ما قاله المؤرخون الأسبان، وعلى رأسهم ماريانا(MARYANA) عن هذا الموضوع. وهو أن إشبان قد رافق نبوخذنصر، وفتح معه القدس، ونقل إلى بلده عددا ً من يهودها[1].

وأميل إلى صحة القول بأن أول استقرار لليهود في أسبانيا، كان في عهد الملك إشبان، وأنه حملهم إليها أسرى، وهو عائد إلى أسبانيا بعد مشاركته نبوخذنصر في فتح القدس. وذلك للأسباب الآتية:

1- ورود هذه الرواية في العديد من مصادرنا الإسلامية، ومن دون أن يشكك في صحتها أي من المؤرخين المسلمين. كما لم تقدم مصادرنا –في ما نعلم- رواية أخرى تتحدث عن أول استقرار يهودي في أسبانيا عن غير هذا الطريق.

2- ورود هذه الرواية في المصادر الأسبانية القديمة، الأقرب إلى زمان الحدث، والتي نقل عنها المؤرخون المسلمون هذا الخبر. يفهم ذلك من قول الرازي في معرض حديثه عن هذا الموضوع: "على ما يذكره علماء عجمها"[2].

3- اقتناع اليهود الأسبان اللاحقين، ومنهم ماريانا (MARYANA) بصحة ما جاء في مصادرهم القديمة[3].

4- شهادات المؤرخين اليهود، وأبناء العائلات اليهودية الأندلسية التي أوضحناها سابقاً، والتي تبين أن أجدادهم جاءوا إلى أسبانيا أسرى مع ملكها إشبان في زمن التدمير الأول للهيكل[4]. وغالباً ما يرسخ في أذهان الجماعات والأقليات التي تعيش غريبة في بلدان أخرى، زمان وكيفية وصولهم إلى هذه البلدان.

5- يبين التاريخ القديم لمدينة طليطلة أنه قبل خمس مئة عام من ميلاد المسيح عليه السلام، ازداد عدد سكانها زيادة كبيرة[5]. لعلها ناتجة عن ذلك الأسر الذي تحدثت عنه المصادر الإسلامية.

---

(1) ينظر:
LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.5.

(2) الحميري، الروض المعطار، ص33 (رواية الرازي).
وردت الإشارة إلى هذا النقل أيضا ً عند: البكري، المسالك والممالك، "الجزء الخاص بالأندلس وأوروبا"، ص110؛ العذري، ترصيع الأخبار، ص97.

(3) ذكر رأي ماريانا وغيره من المؤرخين الأسبان:
LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.5.

(4) BEINART, LUCENA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.11, P.550.
ED, SEVILLE, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL. 14, P.1201;
BEINART, GRANADA ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.7, P.582.

(5) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.4.

6- عثر أمير ماردة (MERIDA) هشام بن عبد العزيز علي حجر في سورها يحمل كتابة تدل على أنه كان لبنة في سور القدس. وقد أشار الحميري إلى أن إشبان قد جلب هذا الحجر وغيره من الغرائب التي وجدت عند فتح أسبانيا، من القدس. "وانتقل رخامها إلى إشبيلية وماردة، وأنه صاحب المائدة التي ألفيت بطليطلة وصاحب الحجر الذي وُجِدَ بماردة، وصاحب قليلة الجوهر التي كانت بماردة أيضاً[1].

ويشهد بقاء هذه الأشياء إلى زمن الفتح الإسلامي، وذكرها في الرواية نفسها التي تحدثت عن أسر إشبان لعدد من يهود القدس وحملهم إلى أسبانيا على صحة وقوع هذا الأسر.

ولا يعني قبولنا وترجيحنا لما جاءت به المصادر الإسلامية، بخصوص أسر إشبان لليهود، ونقلهم من بيت المقدس إلى أسبانيا، أننا نقبل بكلّ ما ورد في رواياتها حول هذا الموضوع من تفصيلات، إذ أنها تحتوي على أساطير ومبالغات لا يمكن قبولها، وذلك مثل قصة اللقاء بين إشبان وهو حرّاث فقير، والخضر الذي بشره بالملك، وأنه سيغزو بيت المقدس[2]، ومثل تقدير عدد الأسرى اليهود الذين تم نقلهم إلى أسبانيا بمئة ألف، إذ لو كان هذا العدد صحيحاً لأصبح عدد اليهود في أسبانيا زمن الفتح الإسلامي لها يصل إلى بضعة ملايين، حيث يكون قد مضى على وجودهم في هذه البلاد نحو أربعة عشر قرناً[3].

أما بخصوص ما ذكرته بعض الدراسات اليهودية عن توقعها أن استقرار اليهود في أسبانيا يرجع إلى عصر القضاة، أو إلى زمن الحروب بين مملكتي يهودا وإسرائيل، أو إلى زمن النبي سليمان عليه السلام. فهي توقعات وفرضيات مرفوضة، لأنها لا تقوم على دليل، وإنما تعتمد على الظن والتخمين فقط.

وقد حاول لندو أن يثبت أن استقرار اليهود في أسبانيا يرجع إلى زمن سليمان عليه السلام، واستشهد بنصوص من التوراة، تتحدث عن قيام رحلات تجارية مشتركة إلى مدينة "ترشيش"، بين بني إسرائيل في عهد سليمان عليه السلام، والفينيقيين في عهد ملكهم حيرام[4]، وأحد هذه النصوص هو: "لأن الملك [سليمان] كانت له في البحر سفن ترشيش مع سفن حيرام، فكانت سفن ترشيش تأتي مرة في كل ثلاث سنين، حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقردة وطواويس"[5].

وأكد لندو أن مدينة "ترشيش" التي وردت في النص التوراتي هي مدينة طرطوشة.

---

(1) الحميري، الروض المعطار، ص59.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص2.

(3) ذلك على أساس أن غزو إشبان للقدس، كان سنة 586 ق.م.، والفتح الإسلامي للأندلس كان سنة (92هـ=711م).

(4) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.1-4.

(5) الكتاب المقدس، العهد العتيق، سفر الملوك الثالث، الفصل العاشر، (بيروت، طبع في مطبعة المرسلين اليسوعيين، 1882م)، ص573.

وأرى أنَّ لندو قد جانب الصواب، لأنه حمَّل النصوص التوراتية التي اعتمد عليها في إثبات رأيه أكثر مما تحتمل، عندما قال إنَّ ترشيش هي مدينة طرطوشة الأسبانية. إذ خالف بذلك ما هو معروف، وما قال به الجغرافيون، مثل البكري الذي بين أن ترشيش هو الاسم القديم لتونس[1]. وما قال به أونكالوس (ONKALOS) في ترجمته الآرامية للتوراة، التي تسمى الترجوما (TARGUM)، حيث أكد أن ترشيش الواردة في النص التوراتي تقع في أفريقيا[2].

وحتى لو كانت هناك سفن عبرانية فينيقية مشتركة وصلت إلى أسبانيا، وجلبت منها الفضة في زمن سليمان عليه السلام، مثلما يقول لندو. فإن ذلك لا يعني أن اليهود قد استقروا في أسبانيا في زمن سليمان عليه السلام، لأنه لا يعقل أن يتركوا مملكة سليمان العظيمة الغنية[3]، ويذهبوا ليستقروا في بلد يبعد عنها كل هذا البعد، ولا يمكن أن يكونوا قد هاجروا إليها بعد وفاة سليمان عليه السلام، وضعف وتنازع اليهود، لأن اليهود لا يملكون القدرة على ركوب البحر، ولم يكتسبوا هذه الخبرة من الفينيقيين، ولم يحدث تعاون بحري لهم مع الفينيقيين بعد عهد سليمان عليه السلام[4].

وأعتقد أنّ حرص لندو وغيره من أصحاب الدراسات اليهودية الحديثة على تأكيد أن أول استقرار يهودي في أسبانيا يرجع إلى زمن سليمان عليه السلام، أو إلى عهود تسبق عهد الملك الأسباني إشبان، هو محاولتهم التهرب من حقيقة أن اليهود قد جاءوا إلى أسبانيا أسرى مستعبدين، لأن في طريقة وصولهم هذه إهانة ليهود الأندلس، لا تناسب عظمة الصورة التي رسموها لهم، وبالغوا في تضخيمها.

وبينما تختلف المصادر والآراء حول وجود اليهود في الأندلس في القرون السابقة للميلاد، لعدم وجود الأدلة الوثائقية والأثرية التي تحسم في العادة هذه الاختلافات، فإنها تتفق على وجود اليهود في أسبانيا في القرون الميلادية الأولى[5]، وذلك لتوفر الآثار والوثائق.

---

(1) البكري، أبي عبيد، المسالك والممالك، جـ2، تحقيق وتقديم: أدريان فان ليوفن، وأندري فيري، (قرطاج، بيت الحكمة، الدار العربية للكتاب، د.ت)، ص695.

(2) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.4.

(3) يدل على عظمة ملك سليمان عليه السلام، قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ، سورة ص، آية" 35؛ وتنظر الآيات التالية لها حتى آية: 40.

(4) عن توقف التعاون البحري اليهودي الفينيقي بعد موت سليمان عليه السلام. ينظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ1، (بيروت، دار العلم للملايين، بغداد، مكتبة النهضة، ط2، 1976م)، ص640-641.

(5) الموسوعة اليهودية، ص286؛
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.503;
الموسوعة العبرية، م26، ص381؛
THE STANDARD JEWISH ENCYCLOPEDIA, (JERUSALEM-TELAVIV, 1958-1959), P.1744-1745.

إذ عثر في أدرا (ADRA) بأسبانيا على كتابة لاتينية موجودة على شاهد قبر لفتاة يهودية تعود إلى القرن الثالث الميلادي[1]. وتم اكتشاف عملات نقدية يهودية في أرض طركونة (TARRAGONA)، كذلك وجدت أربعة قوانين كنسية صادرة بخصوص اليهود عن مجلس إلفيرا (ELVIRA) المنعقد في المدة من (303-304م)، تحرم على النصارى دخول بيوت اليهود أو مؤاكلتهم، أو تزويجهم من فتيات نصرانيات، أو السماح لهم بمباركة محاصيلهم الزراعية[2].

وهذه القوانين تشير إلى وجودهم في شبه الجزيرة الأيبيرية منذ مدة طويلة، سابقة لتاريخ انعقاد المجلس، بحيث أنهم تمكنوا من كسب ثقة السكان، فآكلوهم، وزوجوهم، وطلبوا إليهم مباركة محاصيلهم الزراعية.

وهذه القوانين تشير إلى وجودهم في أسبانيا منذ مدة طويلة، سابقة لتاريخ انعقاد المجلس، بحيث أنهم تمكنوا من كسب ثقة السكان، ومؤاكلتهم، والتزوج منهم.

ويذكر دون إسحاق أبرابانيل (DON ISAAC ABRABANEL) في تفسيره لإصحاح زكريا أنَّ عائلته، وعائلة أخرى سكنت إشبيلية في زمن تدمير الهيكل الثاني (70م)[3].

ويقول المؤلف المجهول "لمذكرات ميورقة" إنَّ استيطان اليهود في جزر البليار(BALEARIC ISLANDS) يعود إلى خمس وستين سنة قبل الميلاد[4].

وإذا صح قيام إشبان بأسر ونقل عدد من يهود القدس إلى أسبانيا في القرن السادس قبل الميلاد مثلما تقول المصادر الإسلامية، فإن هذا التهجير يكون التهجير اليهودي الأول إلى أسبانيا، أما التهجير اليهودي الثاني إلى تلك البلاد، فقد حدث في العهد الروماني، حين توجه القائد الروماني تيتوس فيسبسيان (TITUS VAS PASIAN) سنة (70م) إلى القدس، لإخماد تمرد قام به اليهود هناك، وتمكن من قمع

المتمردين، وإحراق رموزهم[5]، وأسر نحو ثلاثين ألفاً منهم، نقلهم بواسطة اثنتي

عشرة سفينة إلى موانئ المغرب[6]، وكان للأندلس نصيب منهم، إذ ذكر مؤرخو مدينة ماردة إن

---

(1) BROYDE, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11 P.484.

(2) BROYDE, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.484.

(3) LINDO, THE JEWS IN SPAIN, P.6.

(4) IBID, P.6.

(5) أوروسيوس، تاريخ العالم، الترجمة العربية القديمة، تقديم وتحقيق: عبد الرحمن البدوي، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1982م)، ص179.

(6) الكواتي، مسعود، اليهود في المغرب الإسلامي من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الجزائر، معهد التاريخ)، ص40.
وذكر أيضاً أن عدد الأسرى اليهود كان ثلاث مئة ألف أسير.
ينظر: م.ن، ص50.

يهودها استقبلوا إخوانهم الذين رُحِّلوا عن القدس بعد دمار الهيكل الثاني[1]، وقيل إن هؤلاء المرحلين كانوا من أبناء العائلات المهمة من سبطي بنيامين ويهوذا اللذين ينتسبان إلى داود عليه السلام[2].

أما اليهود الذي قُدِّرت لهم النجاة من جند تيتوس، فقد تفرقوا بين بابل ومصر[3]، لكن الجزء الأكبر منهم فر إلى المغرب، وتحديد ا ً إلى مدينة قورينة في منطقة برقة، حسب ما يقوله المؤرخ اليهودي يوسيفوس[4]، الذي قدر أنّ عددهم وصل في ليبيا في القرون الميلادية الأولى إلى نصف مليون[5]، وقد انتشروا أيضا ً في معظم مناطق المغرب، ولا سيما في المدن الساحلية، أو المناطق الداخلية القريبة منها[6].

وبالرغم من اعتقادنا أن تقدير يوسيفوس لعدد اليهود في ليبيا غير دقيق، ومبالغ فيه كثيرا ً، لأنه لو صح لكان عددهم فيها زمن الفتح الإسلامي أكثر من عشرة ملايين، وهذا ما لم يقل به أحد. إلا أنه من الواضح أنّ المغرب في الثلث الأخير من القرن الأول الميلادي قد أصبح من أهم المناطق التي استقر فيها اليهود[7].

وهذا يعني أن أسبانيا منذ تلك العصور قد أصبحت قريبة من تجمع يهودي كبير، ومعرضة لهجرات يهودية مستمرة منها وإليها. وهذا ما حدث بالفعل، فقد ثبت حدوث هذه الهجرات المرتبطة على الأغلب بالظروف السياسية والاقتصادية، منها الهجرة إلى أسبانيا التي حدثت في عهد الإمبراطور البيزنطي جستنيان[8] (527-565م)، عندما قرر أن يسود إمبراطوريته قانون واحد وعقيدة واحدة[9].

وكذلك الهجرة من أسبانيا إلى المغرب التي حدثت بين سنتي (612-613م) في عهد الملك القوطي سايزبوت SISBUTO (612-620م)، الذي اضطهد اليهود، وأمهلهم سنة للتفكير، في اعتناق النصرانية أو الرحيل عن أسبانيا[10].

وأرى أن رقم ثلاث مئة ألف، رقم مبالغ فيه جد اً، فلا يتصور أن يأسر تيتوس كل هذا العدد، لأنه سوف يسبب إرهاقاً للدولة التي ستتكفل على الأقل بإطعامهم جميعاً. وما يدل على المبالغة، أن الرقم الآخر الذي ذكر لعدد الأسرى، كان عشر الرقم الأول. والحقيقة أن الروايات التاريخية كثير اً ما تبالغ في تقدير الأرقام، وتكون بعيدة عن الدقة.

(1) LINDO, THE JEWS IN SPAIN, P.6.

(2) IBID, P.6.

(3) IBID, P.6.

(4) الكواتي، اليهود في المغرب، ص43. عن يوسيفوس ومؤلفاته، ينظر: يوسابيوس القيسري، تاريخ الكنيسة، ترجمة القس مرقص داود، (القاهرة، دار الكرنك للنشر والطباعة والتوزيع، 1966م)، ص122-196.

(5) الكواتي، اليهود في المغرب، ص50.

(6) م.ن، ص51.

(7) م.ن، ص43.

(8) الكواتي، اليهود في المغرب، ص44.

(9) العريني، السيد الباز، الدولة البيزنطية، (بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1982م)، ص96.

(10) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.510; عبد المجيد، محمد بحر، اليهود في الأندلس، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي، 1970م)، ص15.

أما التهجير اليهودي الثالث إلى أسبانيا، فقد قام به الإمبراطور الروماني هدريان (HDRIAN) سنة (136م)، بعد أن قضى على تمرد اليهود في فلسطين، الذي قاده باركوكاب (BARCHOCHAB)، وقد نقل هدريان إلى الأندلس نحو خمسين ألف عائلة يهودية من أجل استعبادهم[1]، ويقال إن هذا الإمبراطور من مواطني أسبانيا[2]، وكان يكره اليهود كرها ً شديدا ً[3].

وأعتقد أن هذا العدد مبالغ فيه أيضا ً، لأن عدد أفراد خمسين ألف عائلة قد يزيد على ربع مليون نسمة، ولو ترك هؤلاء وحدهم يتكاثرون إلى زمن الفتح الإسلامي لأسبانيا لوصل عددهم إلى بضعة ملايين، إذ يكون قد مضى على استقرارهم هناك نحو ستة قرون، وهذا ما يتنافى مع المعلومات المتوفرة عن الوجود اليهودي في المدن الأسبانية زمن الفتح الإسلامي، والتي تعبر عنها مساحة أحيائهم، والتي سنتحدث عنها في الفصل القادم.

المبحث الثاني

اليهود في أسبانيا إلى زمن تحوَّل القوط إلى الكاثوليكية

عاش اليهود في أسبانيا منذ دخولهم إليها بين سكان نتجوا من اختلاطِ شعوبٍ مختلفة الأصول والثقافات، وقد جاء هؤلاء السكان إليها طمعاً بالاستقرار في أرضها الخصبة، ومناخها المعتدل، وموقعها الملائم، وثرواتها الكثيرة، ومعادنها النفيسة[4].

فقد جاءها الأيبيريون من سواحلِ أفريقيا الشمالية في العصر الحديدي، واستقروا في الأجزاء الخصبة الجنوبية والشرقية الوسطى الممتدة بين سواحل البحر المتوسط، ووادي إيبرة[5]. وقد تزامن وصولهم إليها مع قدوم السلت (CELTAS) الذين جاءوا من وسط أوروبا، وسكنوا في جليقية والبرتغال، ثمَّ توغلوا إلى الأجزاء الوسطى، ولاسيما في وادي الحجارة. وقد تحارب الشعبان، ثم استقرت الأمور بينهما، وامتزجا معاً[6].

وجاءها الترتيسوس (TARTESOS) من جزر البحر المتوسط وبلاد اليونان، وسكنوا في حوض الوادي الكبير، في العصر البرونزي، وكانوا من جنس الأيبيرين نفسه، إذ ينتمون إلى جنس الأقوام الأخرى التي سكنت جزر البحر المتوسط والشمال الأفريقي[7].

---

(1) ضياء باشا، الأندلس الذاهبة، دول الطوائف ودولة المرابطين وبداية دولة الموحدين، جـ2، تعريب: عبد الرحمن إرشيدات، مراجعة وتحقيق: صلاح إرشيدات، (عمان، 1989م)، ص406؛
LINDO, THE JEWS IN SPAIN, P.6-7.

(2) IBID, P.7.

(3) جلال، ألفت محمد، الأدب العبري القديم والوسيط، (القاهرة، مطبعة جامعة عين شمس، 1978م)، ص129-130.

(4) حتامله، محمد عبده، أيبيريا قبل مجيئ العرب المسلمين، (الأردن، عمان، 1416 هـ-1996م)، ص109.

(5) م.ن، ص109.

(6) م.ن، ص114.

(7) م.ن، ص113.

ودخلها الفينيقيون تجاراً، وأقاموا فيها مراكز تجارية تحوَّلت إلى مدنٍ مهمة مثل مالقة والمنكب وعذره وقادش[1]، وتمكن القرطاجيون ذوو الأصول الفينيقية من السيطرة على شبه الجزيرة من سنة (535-201 ق.م)، حيث أخرجهم الرومان منها بعد حربين طويلتين عرفتا بالحرب البونية الأولى (264 -241 ق.م)، والحرب البونية الثانية (218-241 ق.م)، ثمَّ أكمل الرومان سيطرتهم على شبه الجزيرة الأيبيرية بعد حربين خاضوهما مع الأهالي، الأولى: (197 - 179 ق.م)، والثانية: (154-133 ق.م)[2].

ومن الصعب التعرُّف على أوضاع قدماء اليهود في أسبانيا، وذلك لسكوت المصادر التاريخية عنها، وندرة المكتشفات الأثرية الخاصة بهم. لكنَّ وجود يهود في زمن الفتح الإسلامي، محافظين على كثير من طقوسهم وعاداتهم ومعتقداتهم الخاصَّة، يدلُّ على أنَّهم لم يتأثروا كثيراً بمعتقداتِ وعاداتِ الأمم الأخرى التي عاشوا في وسطها.

أما عن علاقة اليهود بالدولة الرومانية التي حكمت أسبانيا قبل ميلاد المسيح عليه السلام بنحو قرنين، فقد كانت حسنة في البداية. ومما يدل على ذلك أنَّ أحد القوانين التي شرعت في عهد الإمبراطور أغسطس (31ق.م-14م) لتنظيم مختلف شؤون الإمبراطورية، كان ينصُّ على أنَّ يهود الإمبراطورية قد أثبتوا ولاءهم للشعب الروماني في الحاضر والماضي، وبصفة خاصة عندما كان هيركانوس حبراً أعظم لليهود زمن يوليوس قيصر، لذلك فقد تقرَّر أن يُسمح لهم بمباشرةِ عاداتهم طبقاً لشريعةِ آبائهم، على نحو ما كانوا يفعلون في عهدِ هذا الحبر، وأن يُسمح لهم بإرسال أموالهم إلى أورشليم. ويتوعَّد القانون كلَّ من يسرق أموالهم، أو كتبهم المقدَّسة بالجلد، ومصادرة أملاكه[3].

وسمح لليهود بتشكيل مجلس الشيوخ (GEROUSIA)[4]، بينما فرضت عليهم ضريبة الرأس[5]. مما يدل على أنهم لم يُعَدُّوا مواطنين رومانيين حتى في هذه المرحلة من العلاقات الحسنة.

وتؤكد الآثار تلك العلاقة الحسنة، إذ عثر على عمود من المرمر في منطقة برقة، مكتوب عليه باليونانية كتابة تمَجّدُ الوالي اليوناني على معاملته الإنسانية لليهود[6].

---

[1] م.ن، ص127 -129.
[2] م.ن، ص169.
[3] عبد العليم، مصطفى كمال، اليهود في مصر، (القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة، ط1، 1968م)، ص144.
[4] م.ن، ص144.
[5] م.ن، ص143.
[6] الكواتي، اليهود في المغرب، ص55.

والعلاقة الحسنة بين اليهود والسلطة الرومانية، تسبق عهد الإمبراطور أغسطس[1]، لكنها ازدادت في عهده بسبب التأثير عليه من طبيبه اليهودي أنطنيوس موسى (ANTONIUS MUSA)[2]، الذي حملهُ على إصدار مرسوم سنة (15ق.م) يأمر فيه جميع المقاطعات الرومانية بضرورة محاباة اليهود، وتمييزهم في المعاملة عن غيرهم[3].

وقد تمَتَّع يهود أسبانيا كغيرهم من يهود أقاليم الإمبراطورية[4]، بإدارة شؤونهم الخاصة، حيث كان لهم مجلس ثقافي، وآخر إداري من تسعة أعضاء منتخبين، ومجلس القدماء الذي يهتم بشؤون اليهود الإدارية والمالية والدينية، ويمثل اليهود أمام السلطات الحاكمة، وأمام القضاء في حالة النزاعات المتعلّقة باليهود، وهو يشرفُ أيضاً على تقديم المساعدات للمحتاجين، ولابدَّ من موافقته عند بناء البيَعْ والمدارس[5]. ويرأس الجالية اليهودية من الناحية الدينية الربي(*)، الذي يسهرُ على تطبيق مبادئ القانون، ويشرف على التعليم الديني، ويترأس الاجتماعات المتعلّقة بالمسائل الدينية، يساعده موظف يُسَمىَّ حزان(**)، وقد عُرِف من هؤلاء الرؤساء ثيودوروس، الذي ترأس اليهود في مدينة ماكونه الواقعة في جزيرة ميورقه، وكان ثيودوروس من أثرياء اليهود، ويملك الكثير من الأراضي الزراعية في جزيرتي منورقه وميورقه، وقد ظهر اسمه خلال الصراع اليهودي النصراني في أسبانيا في أوائل القرن الخامس الميلادي[6]، وكان للبيعة مكانة بارزة في أوساط اليهود، فبالإضافة إلى كونها مكاناً للصلاةِ والعبادة، فهي مدرسة تُلقى فيها دروس المواعظ، ويتمُّ فيها تعليم الأبناء، وهي مركز للقضاء وتنفيذ العقوبات، وفيها تناقش القضايا المالية والسياسية والقانونية كافة[7].

وكان يهود أسبانيا خلال الحكم الروماني يُطبقون شعائر دينهم، دون عوائق تذكر، ويتوجَّهون بأسئلتهم الدينية إلى مدارسهم في الشرق[8].

وبالنسبة للنشاط الاقتصادي ليهود أسبانيا، فهناك إشارات تُظهر أنَّهم عملوا من سنة (100-300م) في زراعة الزيتون، وفي صناعة النبيذ[9]. وقد أصبح عددٌ كبيرٌ منهم من أصحاب

---

(1) LINDO, THE JEWS IN SPAIN, P.8.

(2) الكواتي، اليهود في المغرب، ص56.

(3) LINDO, THE JEWS IN SPAIN, P.5.

(4) لمعرفة التقسيمات الإدارية لشبه الجزيرة الأيبيرية خلال الحكم الروماني. ينظر: حتامله، أيبريا، ص174-180.

(5) الكواتي، اليهود في المغرب، ص52.

(*) الربي: لقب أطلق على رؤساء اليهود وأحبارهم، وهي كلمة تعني بالعبرية "الرئيس" أو "الكبير".
ظاظا، حسن، الفكر الديني اليهودي، (دمشق، دار القلم، ط2، 1407هـ-1987م)، ص201.

(**) الحزان: موظف يقوم بمساعدة الربي في الشؤون الدينية، وهو الذي يتولى الوعظ والخطابة في المعبد اليهودي.
ينظر: القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ5، (مصر، المؤسسة المصرية العامة، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، د.ت). ص474؛ الكواتي اليهود في المغرب، ص52.

(6) DUBNOV, HISTORY OF THE HEWS, VOL.2, P.505.

(7) الكواتي، اليهود في المغرب، ص52.

(8) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.9.

(9) GILBERT, MARTIN, JEWISH HISTORY ATLAS, (LONDON, 1969), P.15.

الأملاك الكبيرة، وكانوا يحرثون الأرض بأيديهم، أو بواسطة العبيد، أو يؤجّرونها بموجب الشروط المعمول بها في ذلك الوقت، وكان بعضهم مسؤولاً عن العمال والحسابات في الإقطاعيات التي يملكها الآخرون[1]. كما توجد إشارات إلى اشتغالهم بالتجارة في ما وراء البحار[2].

وقد تأثر يهود أسبانيا كغيرهم من السكان بالرومان، فتكلّموا بلغتهم، وتسمّوا بأسمائهم، وأخذوا بعض عاداتهم وتقاليدهم، فانتشرت بينهم اللغة اللاتينية، وكتبوا بها أبحاثهم الدينية، ولذلك فقد احتاجوا في بيعهم إلى مترجمين يترجمون كتابهم المقدس إلى اللغة اللاتينية التي أصبحت مفهومة لدى جمهورهم، ومستخدمة أكثر من لغتهم العبرية[3]. ويلاحظ أن اليهود كغيرهم من السكان قد تأثروا بالرومان في مجالات مختلفة إلا أنهم ظلوا محافظين على معتقداتهم الدينية.

لم تدم حالة الوفاق بين اليهود والسلطة الرومانية الحاكمة، إذ سرعان ما تبدلت وساءت. وسبب ذلك أن كثيراً من الحكام الرومان اكتشفوا أن اليهود يستغلون الشعب الروماني، ويسيئون معاملتهم، ويسلكون كلَّ الطرق البعيدة عن القانون والأخلاق في سبيل الحصول على المال، وأنهم ينطلقون في تعاملهم معهم من منطلق تعاليم التلمود الذي يقول: "الفرق بين درجة الإنسان ودرجة الحيوان، كالفرق بين اليهود وبقية الشعوب "[4]، ويقول: "حياة غير اليهودي ملك لليهودي، فكيف بأمواله"[5]. وعندما حاول الحكام الرومان منع تجاوزات اليهود على شعبهم، وضيقوا عليهم، قام اليهودُ بالتمرد عليهم. وكانت تمردات اليهودِ في بعض الأحيان عنيفة، وكانوا في تمرداتهم ينتقمون من السكان الذين يعيشون حولهم، بأبشع الطرق. ففي بداية القرن الثاني الميلادي، وفي عهد الإمبراطور تراجان (TRAGAN)، وأثناء انشغاله في محاربة البرثيين، قام اليهود بتمرد كبير في منطقة برقة، امتد إلى مصر وما بين النهرين وأنطاكية، وقد تزعم اليهود في هذا التمرد ملكاً عينوه عليهم، يدعى أندرياس (ANDREAS)، وقد بدأ التمرد بمهاجمة السكان الإغريق، ثمَّ تطوَّر بعد عودة تراجان وتصديه لهم، إلى صراعٍ يائسٍ مع الحكومة الرومانية. ويصف ديون كاسيوس[*] (DION CASSIUS) هذه الوحشية بقوله: "إنهم كانوا يأكلون لحوم قتلاهم، ويصنعون من أمعائهم أحزمة يتمنطقون بها، ويلطخون أجسامهم بدمهم، ويسلخون جلودهم، ويتخذونها ملابس لهم، وأنهم عمدوا إلى كثيرٍ منهم فشطروهم شطرين من رأسهم إلى الأسفل، وألقوا بآخرين إلى الوحوش المفترسة، وأرغموا الكثير منهم على مصارعة بعضهم بعضاً، كما

---

(1) BEAR, YITZHAK, A HISTORY OF THE JEWS IN CHRISTIAN SPAIN VOL.1, P.17–18.

(2) IBID,VOL.1, P.18; LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.9.

(3) حتامله، أيبريا، ص187؛ الكواتي، اليهود في المغرب، ص54؛ R, A HISTORY OF THE JEWS, VOL.1, P.19.

(4) مظهر، سليمان، قصة الديانات، (دار الوطن العربي، د.ت)، ص376.

(5) التل، عبد الله، خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، (بيروت، المكتب الإسلامي، ط2، 1979م)، ص74.

(*) ديون كاسيوس: مؤرخ ولد في نيقيا، حوالي سنة (155م)، وتوفي حوالي سنة (235م)، كتب بالإغريقية تاريخاً للرومان. ينظر: الكواتي، اليهود في المغرب، ص58.

يفعل المصارعون"[1]. كما قاموا بتدمير المعابد الإغريقية، وتخريب الطرق والمباني العامة، حتى تحوَّلت برقة في آخر الأمر إلى صحراء يُخيمُ عليها الخراب الشامل[2]. ويقَدر ديون كاسيوس عدد الإغريق الذين قتلهم اليهود في برقة بحوالي 220000 نسمة، وعدد الذين قتلوهم في قبرص بحوالي 240000 نسمة[3].

وبالرغم من المبالغة الواضحة والكبيرة في تقديرات عدد القتلى، إلا أنها تشير إلى شدَّة عنف تمردات اليهود، وأنَّهم كانوا يوجَهّونها ضد السكان.

ومع أن هذه التمردات[4] لم يقم بها يهود أسبانيا، إلا نتائجها قد انعكست عليهم، وأساءت إلى علاقاتهم بالسلطة الرومانية، وجعلتهم مكروهين من سكان أسبانيا الذين لا يخفى عليهم ما يفعله يهود شمال أفريقيا القريبة منهم بمن حولهم من السكان فيها.

كما ازداد العداء والكره لليهود من سكان الإمبراطورية، بما فيهم سكان أسبانيا الذين تحول معظمهم إلى النصرانية بعد اعتناق الإمبراطور قسطنطين لها سنة 312م، وجعلها الدين الرسمي للبلاد[5]، وذلك بسبب التاريخ المرير لليهود في التصدي للنصرانية منذ ظهورها فعلى الرغم من أنهم أهل كتاب سماوي، ويفترض أن يكونوا أول من يؤمن بعيسى -عليه السلام- إلا أنهم كذبوه، واتهموا أمه مريم العذراء بالزنا، وحرضوا عليه الوثنيين الرومان، ثم اتخذ مجلسهم الكهنوتي الأعلى "السنهدرين"[6] قرارا ً سنة (39م) بقتله صلبا ً[7]، لكن الله حفظه منهم، وحول صورة أحد حوارييه إلى صورته فقاموا بصلبه وقتله. ورفع الله المسيح عليه السلام إليه، لكنهم اعتقدوا، وكذلك النصارى أنهم قتلوه[8].

وظل النصارى يذكرون كيف قتل اليهود رموزهم وقديسيهم الأوائل، مثل مار يعقوب الراشد الذين حرضوا الإمبراطور الروماني الوثني هيرودوس إغريقا على قتله، فأمر بقطع رأسه سنة (41م)، وكيف قاموا برجم يعقوب أحد حواريي المسيح، وعددا ً كبيرا ً من النصارى سنة (62م)، وقتل مار سمعان أسقف أورشليم سنة (117م)، وكذلك المجازر الواسعة التي حدثت بعد حريق روما، وتوالت في عهد نيرون ضد النصارى في جميع أنحاء الإمبراطورية، بتحريضٍ من

---

[1] الكواتي، اليهود في المغرب، ص58؛ عبد العليم، اليهود في مصر، ص178.

[2] عبد العليم، اليهود في مصر، ص178.

[3] م.ن، ص178.

[4] حدثت تمردات أخرى قام بها اليهود ضد الرومان في مصر. ينظر: عبد العليم، اليهود في مصر، ص182، 188-189.

[5] عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص10.

[6] السنهدرين: وهو المجلس الكهنوتي الأعلى لليهود، ويضم عدداً من قادتهم وحكمائهم، ويتولى إدارة شؤونهم وتوجيههم. ويرى بعض اليهود أنه تشكل منذ عهد موسى عليه السلام، بينما يرى آخرون أنه تشكل بعد الرجوع من السبي البابلي. وهم يزعمون أن جميع أعضائه من اللاويين أبناء هارون عليه السلام. ينظر: سوسة، أحمد، مفصل العرب واليهود في التاريخ، (بغداد، دار الحرية للطباعة، ط5، 1980م)ص333.

[7] م.ن، ص333.

[8] ابن كثير، عماد الدين إسماعيل، مختصر تفسير ابن كثير، م1، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني، (بيروت، دار القرآن الكريم، 1402هـ-1981م)، ص455-456؛ ينظر سورة النساء، آية 157-158.

بوبايا زوجة القيصر ذات الأم اليهودية التي كانت لا ترد طلبا ً لشيوخ اليهود المقيمين في ظل حمايتها[1].

ومن حوادث التحريض اليهودي ضدَّ النصارى قيام حبر يهودي بتحريضِ الإمبراطور أنطونيوس بن أسريروس المعروف بماركوس أوروليوس على النصارى، حتى أصبح عدواً لدوداً لهم، لدرجة أنَّه أمر بقتلِ النصارى من جنوده العائدين من الحرب. كما أقنع هذا الحبر الإمبراطور الساذج بأن النصارى يجلبون أمراضاً معدية، تفتك بالشعوب، واستصدر منه أمراً بإبادةِ النصارى القاطنين في روما وقتئذٍ[2].

واليهود عندما يقومون بهذه الأعمال إنما ينفذون ما دعا إليه أحبارهم، إذ جاء في التلمود: "باستطاعتك، بل من واجبك أن تقتل أفضل النصارى"[3].

والتلمود مليئ بالعبارات المعادية والمثيرةِ للنصارى، وبالشتائم والاتهامات الموجهة إلى المسيح وأمه، إذ يعدونه ابن زناً وساحراً وخارجاً عن الإيمان، وأنه سوف يعاقب في جهنم إلى الأبد، وسط الأقذار الفائرة[4].

وما يؤكد اعتقاد اليهود بتعاليم التلمود في كل العصور، ما ينقله إميل الخوري عن لوب، الذي يقول في مجلة الدروس اليهودية: "وأي عجبٍ في أن يتضمن التلمود بعض المذمَّات بحق يسوع؟! إنما الغريب أن يكون الحال على خلاف ذلك، وإذا كان لابد من عجبٍ لشيء، فلنعجب لأنه ليس في التلمود من المذمات أكثر مما فيه..."[5].

لقد نشطت الدعاية اليهودية لإيقاف تيار النصرانية الجارف، ولم تقتصر على الأساليب سالفة الذكر، بل استعملت أسلوب السخرية والتهكم من شخصية المسيح عليه السلام، ومن الأمثلة على ذلك قيام أحد اليهود بحمل صورة "كاريكاتورية" للمسيح عليه السلام في أحد شوارع مدينة قرطاجة، وهو في ثوب فضفاض، وأقدام ظلفاء، يحمل كتابا ً، وقد كتب بجانب الرسم: "رب المسيحيين ينام مع الحمير"[6].

ونشط النصارى في الدفاع عن أنفسهم ونصرة دينهم، ومن بين المدافعين طرطوليانوس أو تيرتوليان TERTULIAN، وهو أحد آباء الكنيسة، وقد ناضل ضد طائفة كارثيج

---

[1] حرب، إميل الخوري، مؤامرة اليهود على المسيحية، (بيروت، دار العلم للملايين، 1947م)، ص32-33.

[2] عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص9.

[3] م.ن، ص32.

[4] حرب، مؤامرة اليهود على المسيحية، ص36.

[5] م.ن، ص36.

[6] م.ن، ص61.

CARTHAGE اليهودية في نهاية القرن الثاني الميلادي، وألف كتاباً بعنوان: "ضد اليهود" ما بين سنتي (200 و206م) للرد عليهم ودحض حججهم، وبين مواقفهم المضادة للنصرانية[1].

إنَّ أوَّل اتصال بين النصرانية ويهود أسبانيا كان على يدِ الحواري بول (PAUL)، الذي قيل أنه قام بزيارة أسبانيا لدعوة يهودها إلى الدين الجديد[2]. ويبدو أنَّ دعوته قد قوبلت بالرفض، إذ لم ترد روايات عن انتشارها بين اليهود.

وهناك رواية تقول أن يهود طليطلة قد بعثوا برسالة إلى المجلس الكهنوتي الأعلى لليهود "السنهدرين" في القدس، يستنكرون فيها صلب المسيح[3]. ويصعب تصديق الخبر الذي تقدِّمه هذه الرواية، لاحتمال أن يكون يهود أسبانيا هم الذين اختلقوه وأذاعوه، بهدف التخفيف من حملات الاضطهاد التي تعرَّضوا لها في عصور مختلفة، إذ أنَّ الرواية تنفي مسؤولية آبائهم في المشاركة، أو الرضا بأكبر جريمة اقترفها اليهود بحق النصرانية، والتي كانت على الدَّوام أهم أسباب التضييق عليهم.

ويبدو أنَّ العلاقات النصرانية اليهودية في أسبانيا حتى القرن الثالث الميلادي، كانت أفضل مما هي عليه في مناطق أخرى[4]، أو أن النصارى هناك كانوا أضعف من مواجهة اليهود والتصادم معهم، ولذلك لوحظت هجرة يهودية من شمال أفريقيا إلى أسبانيا خلال تلك المدَّة[5].

إنَّ أقدم وثيقة وصلت إلينا، وتُعبِّرُ عن موقف نصارى الأندلس من يهودها، هي تلك القوانين الأربعة الصادرة عن مجلس إلبيرة (ELVIRA)، الذي عُقِدَ من سنة (303–304م)، أي قبل أن يعتنق الإمبراطور قسطنطين النصرانيةَ ويجعلها الديانة الرسمية في البلاد، وقبل أن يحدث التحالف بين الكنيسة والسلطة الحاكمة.

ويتكون هذا المجلس من تسعة عشر أُسقفاً، وأربعة وعشرين رجل دين آخر (PRESBYTERS)، يتم اختيار الأساقفة من قرطبة وإشبيلية وطليطلة وطركونة والمدن الأخرى التي يقطن فيها اليهود، وقد صدر عن هذا المجلس العديد من القوانين ضدَّ الوثنية في أسبانيا، وحول تنظيم الكنيسة والتبشير بالنصرانية[6]. أما القوانين الخاصة باليهود فهي: -

---

(1) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.504؛
الكواتي، اليهود في المغرب، ص61.

(2) BROYDE, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.484;
BEAR, A HISTORY OF THE JEWS, VOL.1, P.16.

(3) BROYDE, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.484.

(4) الموسوعة العبرية، م26، ص381.

(5) مؤنس، حسين، فجر الأندلس، (القاهرة، ط1، 1959م)، ص521؛
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.504.

(6) BROYDE, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.484;
LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.10; DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.504.

القانون 16 ونصه: "لا يجوزُ تزويج الفتيات الكاثوليكيات لا لليهود ولا للكفرة، وذلك لضرورة عدم قيام أية علاقات بين المؤمن والكافر، وإنَّ الآباء الذين يخالفون هذا القانون سيتم طردهم من الكنيسة لمدَّة خمسة أعوام"[1].

والقانون 49 ونصه: "يجب تذكير مالكي الأراضي بعدم السماح لليهود بمباركة المحاصيل التي رزقهم الله بها، وذلك من أجل أن لا يقوم اليهود بإضعاف تأثير بركات الرهبنة النصرانية، وكل من يتجرأ على انتهاك هذا الحظر سوف يطرد من الكنيسة كلياً"[2].

والقانون 50 ونصه: "إذا قام أيُّ امرئ، سواء أكان من رجال الكنيسة، أم من بقية المؤمنين بتناول الطعام مع اليهود، فسوف يُحرم من رعايتنا الكنسية، إلى أن يقوم بالتكفير عن ذنبه، عسى أن يكون ذلك درساً له"[3].

والقانون 78 ونصه: "إذا اقترف مؤمنٌ متزَوجٌ إثم الزنا مع فتاةٍ يهوديةٍ أو وثنيةٍ، فسوف يتعرَّض إلى الطردِ من رعايتنا الكنسيَّة"[4].

وعند التأمُّلِ في هذه القوانين يتبيّنُ مدى العلاقة التي كانت تربط بين اليهود في أسبانيا وبقية السكان قبل اعتناقهم النصرانية، فقد تمكنوا من الهيمنة على عقول الكثير من المزارعين، مستغِلّين بساطتهم، وخواءهم الروحي، وخوفهم من الكوارث التي قد تصيب حقولهم، وأقنعوهم بقدرتهم على مباركة محاصيلهم وزيادتها، وأظنُّ أنهم كانوا يتقاضون على عملهم هذا أجراً، والظاهر أنه قد ساعدهم على ذلك شعور السكان الوثنيين أمامهم بالنقص، إذ يفاخرون كعادتهم، بأنهم أصحاب كتاب سماوي، وأنَّهم أبناء الله وأحباؤه[5]، وقد استمرَّت هذه العادة بعد دخول كثيرِ من السكان في النصرانية، حيث أصبحت عادة متوارثة ليس من السَّهل تركها، وقد أقلقت رجال الدين، لأنَّها تُقلّلُ الثقة بهم، وبدينهم، فأصدروا قانوناً يحرّمها، ويتوعَّدُ من يقترفها.

كما يتبين وجود علاقات اجتماعية بين يهود الأندلس وسكانها النصارى، حتى مطلع القرن الرابع الميلادي[6]، إذ كان بعض اليهود يتزوجون من نصرانيات، ويشاركون النصارى على موائد الطعام، ويخالطونهم. ويدلُّ التشددُ في العقوبات التي وضعها رجال الدين على تأصُّل وقِدَم هذه

---

(1) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.10.
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.505.

(2) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.10 P; DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.504.

(3) LINDO, THE JEWS OF SPAIN,P.10; DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.505.

(4) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.11.

(5) ذُكر معتقدهم هذا الذي يشاركهم فيه النصارى في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾" المائدة، آية 18.

(6) الموسوعة العبرية، م26، ص381.

الممارسات، بحيث أنه لا يكفي النَّهي وحده لوقفها، ولابدَّ من وضع عقوبة زاجرة. ولعل سبب تأصُّلها، أنها سائدة في أسبانيا قبل دخول السكان في النصرانية.

ويتبيَّن كذلك أن اليهود في نظر رجال الدين النصارى في أسبانيا كفارٌ يجب عدم تزويجهم أو مؤاكلتهم.

ومن الطبعي أن يبدأ رجال الدين حملة المقاطعة لليهود قبل غيرهم من النصارى العاديين، لأنهم الأعرف بتاريخهم مع النصرانية، والأدرى بما يدبَرون ويكيدون لدينهم.

إن الكره المتراكم في قلوب شعوب الإمبراطورية الرومانية لليهود، بسبب التجارب المريرة معهم، والتي ذكرنا جانباً منها، قد زاد بعد اعتناق هذه الشعوب النصرانية، إذ أصبح النصارى الأوائل الذين قتلهم اليهود، رموزاً محبوبة لدى هذه الشعوب، بمن فيهم سكان أسبانيا. يؤكد ذلك ما حدث سنة 418 م، في جزيرة منورقه، حيث أُعلن عن اكتشاف الآثار المقدسة للقديس ستيفانوس الشهيد النصراني الأول، الذي قتله اليهود بعد مدة قصيرة من محاولة قتل المسيح عليه السلام، فتدفقت حشود النصارى من مختلف أرجاء أسبانيا، لمشاهدة هذه الأعجوبة، وأثيرت مشاعر النصارى ضدَّ اليهود، وزادها تحريض أسقف منورقه سيفيروس، وبطانته الكهنوتية، وأرادوا معاقبة اليهود، فقاموا بهدم كنيسهم في ماكونا، وتنصير يهودها(1)، الذين يبلغ عددهم نحو ثلاث مئة عائلة(2).

كما حدثت ردود فعل أخرى ضد اليهود في مناطق داخل أسبانيا، وما يدل على حدوثها، هروب عدد من يهود أسبانيا إلى جزيرة منورقه قبيل وقوع أحداثها سالفة الذكر(3).

أصاب الضعف جسم الإمبراطورية الرومانية، وتمكنت العديد من القبائل الجرمانية القادمة من الجهات الشرقية من أوربا من الدخول إلى أسبانيا عبر جبال ألبرت سنة (409م)، بعد أن هزموا الجيوش الرومانية التي تصدَّت لهم، في تلك المناطق وقد احتلت هذه القبائل معظم أراضي أسبانيا، واقتسمتها في ما بينها سنة (411م)(4).

---

(1) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.505-506.

(2) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.11.
للمزيد من التفصيل ينظر: DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.506.

(3) BEAR, A HISTORY OF THE JEWS, VOL.1, P.17-18.

(4) ISIDOR OF SEVILLES, HISTORY OF THE KINGS OF THE GOTHS, VANDALS AND SUEVI (LEIDEN, 1966), P.34;
حتامله، أيبيريا قبل مجيئ العرب المسلمين، ص192-193.

وكان الوندال من أقوى القبائل الجرمانية في أسبانيا، التي سُمّيت بالأندلس نسبة إليهم، وقد ظلوا فيها إلى أن طردهم منها القوط سنة (429م)[1]، فتوجَّهوا عبر مضيقِ جبل طارق إلى شمال أفريقيا، وأقاموا فيها دولة استمرَّت إلى أن قضى عليـهم الرومان سنة (534م)[2].

ولا تتوفر معلومات عن أحوالِ اليهود خلال سيادة الوندال وغيرهم من القبائل الجرمانية المرافقة لهم، غير أنَّ اليهود لم يقاوموا هذه القبائل[3]، مثلما قاومها النَّصارى الكاثوليك. وأرى أنهم قدَّموا لهم المساعدة ضدَّ النصارى، الذين بدأوا يضيقون عليهم، في الأقل منذ مجلس إلفيرا سنة (303–304م)، وضدَّ الرومان الذين ضيَّقوا عليهم، ولا سيما عندما اعتنق الإمبراطور قسطنطين النصرانية، وجعلها الدين الرسمي والوحيد في البلاد سنة (312م)[4].

وقد جنى اليهود ثمارَ هذا الموقف تسامحا ً من قبل الوندال[5]، الذين اضطهدوا الكاثوليك، فانشغلوا بأنفسهم ولم يعودوا قادرين على مواصلة تضييقهم على اليهود، وسبب اضطِّهادِ الوندال للكاثوليك هو مقاومتهم لهم، لأنَّ الوندال يُخالفونهم في المذهب، حيث كانوا نصارى على المذهب الأريوسي[6]، وهو المذهب نفسه الذي حمله القوط، واستمروا على اعتناقه في أسبانيا منذ دخولها سنة (409م)، إلى أن تحوَّلَ ريكارد إلى الكاثوليكية سنة (587م)، وفرضها على معظم القوط[7].

وهذا المذهب الذي نعم يهود أسبانيا في ظِلّه بشيءٍ من الحريّةِ والتسامح أثناء حكم الوندال والقوط الأريوسيين يقوم على التوَّحيد، ويجعل المسيح عليه السلام إنسانا ً كاملا ً، وينفي عنه الألوهية، ويقول بأنَّ الله خلقه من لا شيء[8]. ولهذا أوصى النبي محمد صلى الله عليه وسلم في رسالته إلى هرقل عظيم الروم بمعتنقي هذا المذهبِ خيرا ً، فقال في رسالته: " ... فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين"[9].

عاش اليهود في أسبانيا، تحت سيادة ملوك القوط الأريوسيين لأكثر من قرن ونصف من الزمان، وتدلُّ المعلومات القليلة المتوفّرة عنهم في تلك المدَّة على تمتُّعِهم بمرحلة من التسامح والرخاء، مقارنة بأوضاعهم تحت حكم القوط الكاثوليك، الذي أعقب هذه المرحلة.

---

[1] حتامله، أيبيريا قبل مجيئ العرب المسلمين، ص196.

[2] م.ن، ص196.

[3] LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.11.

[4] BROYDE, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.484.

[5] LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.11.

[6] ISIDOR OF SEVILLES, HISTORY OF THE KINGS OF THE GOTHS, VANDALS AND SUEVI (LEIDEN, 1966) P.35; حتامله، أيبيريا قبل مجيئ العرب المسلمين، ص198.

[7] حتامله، أيبيريا قبل مجيئ العرب المسلمين، ص238-240.

[8] كحيلة، عبادة، تاريخ النصارى في الأندلس، (القاهرة، ط1، 1414هـ–1993م)، ص14، 15؛ ISIDOR OF SEVILLES, HISTORY OF THE KINGS OF THE GOTHS, VANDALS AND SUEVI (LEIDEN, 1966) P.6.

[9] ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، جـ3، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1385هـ-1965م)، ص501.

فقد كانوا يطبقون شرائعهم الدينية المتعلَّقة بالطعام والزواج والعبيد والسبت واحتفالات الأعياد، ويترددون على معابدهم، ويقرأون بحوثهم الدينية المكتوبة باللاتينية على الأرجح، ولهم في كل مدينة يسكنونها طائفة مستقلة تدير شؤونها الخاصَّة[1]، وهم يحاكمون في المحاكم المدنية، وفقا ً للقانون الروماني[2]، لكنَّهم لم يُعدُّوا مواطنين رومانيين كاملين، حسب القانون القوطي الأريوسي الأول الصادر سنة (506م)، من الملك القوطي ألاريك الثاني (484–507م)، كجزء من قانون ثيودسيان الخاص بالسكان، حيث منعهم من احتلالِ مناصب عامة، وحظر عليهم التزاوج مع النصارى، أو بناء معابد جديدة، أو امتلاك عبيد نصارى، كما منعهم من اضطهادِ المتحوّلين منهم إلى الأريوسية، لكنَّ هذا القانون لم يُنَفَّذْ بشكلٍ صارمٍ في معظم الأوقات[3]، ولا يُعَبّرُ عن اضطهادٍ قوطيٍ أريوسي لليهود. ويفسّرُ أحدُ الباحثين وجوده بأنَّه نُقِلَ عن غيرِ قصْدٍ من القانون الروماني الكاثوليكي المتعصّب ضدَّ اليهود[4].

ولا أرى صحة هذا الرأي، إذ أنَّ لكل دولة قوانينها الخاصة، التي تنظم شؤون رعاياها، وليس بالضرورة أن تحققَ جميعها رغبات ومصالح هؤلاء الرعايا، حتى توصف بأنها عادلة أو متسامحة.

وتبادلت الكنيسة الكاثوليكية، والسلطات القوطية الأريوسية القوانين التي تمنع اختلاط الفئتين معا ً، فحرَّمت الكنيسة الكاثوليكية التزاوج مع القوط الأريوسيين، وكذلك فعلت القوانين الأريوسية، وعاشت الفئتين النصرانيتين طوال مدَّة الحكم الأريوسي منعزلتين متباغضتين. وأفاد اليهود من ذلك، فلا الكاثوليك يستطيعون اضطهادهم، ولا الأريوسيون يفرّطون في خدماتهم، ومناصرتهم لهم ضد الكاثوليك العدوّ المشترك[5].

---

(1) BEAR, A HISTORY OF THE JEWS IN CHRICTIEN SPAIN, VOL.1, P.19.

(2) IBID, VOL.1, P.18.

(3) طرخان، إبراهيم علي، دولة القوط الغربيين، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1958م)، ص166؛
BEAR, A HISTORY OF THE JEWS IN CHRISTINE SPAIN, VOL.1 P.18-19;
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.506.

(4) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.507.

(5) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.507;
لم تخل مدة حكم القوط الأريوسيين من عهود تسامح مع الكاثوليك، لكن التباغض والاضطهاد هو الأغلب، وأشد العهود على الكاثوليك كان عهد الملك يوريك (466–486م)، إذ قام بإعدام العديد من الأساقفة الكاثوليك. ينظر: طرخان، دولة القوط، ص156–157.

وقد استخدم القوط الأريوسيون اليهودَ في منطقةِ نربونة[*] (NARBONNE)، للدفاعِ عن حدودهم الشمالية، ضدَّ هجمات الكاثوليك الفرنج، وعندما سقطت نربونة في أيدي الكاثوليك قاموا باضطهادِ اليهودِ والأريوسيين[1].

كما ناصر اليهود القوط ضِدَّ البيزنطيين في شمال أفريقيا في عهد الإمبراطور جستنيان، عندما حاول البيزنطيين نشر الكاثوليكية في أسبانيا[2].

واليهود لا يناصرون القوط الأريوسيين حَّبا ً فيهم، أو إخلاصا ً لهم، وإنَّما ليحققوا مصالحهم التي يعتقدون أنها في إبعاد سلطة الكاثوليك الأكثر تعصبا ً ضدَّهم.

وتوجد إشارات عن ممارسة اليهود خلال هذه المرحلة التجارة والزراعة[3]، وامتلاكهم الأراضي الزراعية الواسعة[4]، وأنَّهم دفعوا ضرائب فرضها عليهم القوط[5].

(*) نربونة: مدينة في جنوب فرنسا، وتسمى أيضا ً أربونة.
البكري، المسالك والممالك، "الجزء الخاص بالأندلس"، (هامش المحقق).
وقد وصفها الحميري بقوله: "مدينةٌ هي آخر ما كان بأيدي المسلمين من مدن الأندلس وثغورها مما يلي بلاد الإفرنجة". الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص11-12.

(1) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.507.

(2) IBID, VOL.2, P.507.

(3) BROYDE, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.484; LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.9.
الموسوعة العبرية، م26، ص381.

(4) BEAR, A HISTORY OF THE JEWS IN CHRICTIEN SPAIN, VOL.1, P.18.

(5) IBID, VOL.1, P.19.

كما أقام اليهود علاقاتٍ جيدة باليهود خـارج أسبانيا[1]، ولعلَّ هذه العلاقات إحدى أسباب التفوُّق التجاري لليهودِ على مر العصور.

ويمكن استنتاج الكثير عن حياه اليهود الاجتماعية والاقتصـادية في هذا العصر من خلال القوانين القوطية الكاثوليكية اللاحقة، التي وضعت حدًّا ً للرخاء النسبي الذي عاشه اليهود تحت الحكم القوطي الأريوسي، والذي انتهى منذ اعتناق الملك القوطي ريكارد الكاثوليكية سنة 587م.

DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.15, P,507. (1)

المبحث الثالث

اليهود تحت حكم القوط الكاثوليك

كان تحوّل الملك القوطي ريكارد إلى الكاثوليكية سنة (587م)[1]، حدثاً مؤثراً في تاريخِ أسبانيا، وانقلاباً مفاجئاً في حياة سكانها. إذ أجبر ريكارد القوط على تغيير مذهبهم الأريوسي إلى المذهب الكاثوليكي بعد نحو ثلاثة قرون من اعتناقه، وصار لرجال الدين الكاثوليك ومجالسهم الكنسية سلطة تفوق في كثيرٍ من الأحيان سلطة الملك نفسه[2]، إذ أصبحت مجالس دينيّة تشريعية يحضرها الملك والنبلاء، ويشاركون رجال الدين في سَنِّ القوانين[3]، وتبدَّلت معيشة اليهودِ من رخاءٍ وسلامٍ نسبي في عهدِ القوط الأريوسيين إلى معيشةٍ ضنكى، لم يعيشوا مثلها، منذ دخولهم هذه البلاد، حيث أصبح الشغل الشاغِلُ للمجالس الكنسيَّةِ هو إصدار القوانين المضيقة على اليهود، ومراقبة تنفيذها[4].

وصار تشدُّد الملك القوطي مع اليهود، من أهم أسبابِ حصوله على رضا ودعمِ رجال الكنيسة، وكثيراً ما كانوا يفرضون على الملكِ قبل مبايعته. أن يقسم أمامهم، بأنَّه سيُنَفِّذُ جميع القوانين السابقةِ والخاصَّة باليهود، وأنَّه سيواصِلُ التضييقَ عليهم[5].

وهدف رجال الدين من هذا التّضييق، هو حملهم على التنصُّر، وعقاباً لهم على ما اقترفه أجدادهم بحق المسيحِ وأمّه عليهما السلام، وبحق النصرانيةِ ورموزها في العصورِ السابقة، وهم يَرَوْن أن ما يصيب اليهود بأيدي النَّصارى من عذابٍ، إنما هو عقاب مسلط عليهم من الله بسبب كفرهم ومعاصيهم[6].

صدرت أولى القوانين المضّيقةِ على اليهود عن المجلس الكنسي الثالث لطليطلة، والذي دعا إليه وحضره ريكارد سنة (589م)[7]، وكان الهدف الرئيس من عقده، هو إعلان الكاثوليكية

---

[1] يرى البعض أنَّ سبب تحوّله إلى الكاثوليكية هو اقتناعه بها، بينما يرى آخرون أن السبب هو اقتناعه بأنَّ اعتناقها وفرضها على جميع السكان هو أقصر طريقٍ لتوحيد البلاد.
ينظر: S.SCH, SPAIN, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.15, P.220;
ISIDOR, HISTORY OF THE KINGS, P.25-27;
BROYDE, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.484;
طرخان، دولة القوط، ص151. ولا يمكن الجزم بأحد الرأيين، لأن النوايا لا يعلمها إلاَّ الله تعالى، ولا توجد القرائن التي تمكِّن من الحسم.

[2] S.SCH, SPAIN, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.15, P.220.

[3] DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL. 2, P.508;
LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.13.

[4] طرخان، دولة القوط، ص151.
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.508.

[5] ELIYAHU ASHTOR, THE JEWS OF MOSLEM SPAIN (PHILADELPHIA, 1979), VOL.1, P.12;
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.515.

[6] ROYMOUND P. SCHEINDLIN, THE JEWS IN MOSLIM SPAIN, THE LEGACY OF MOSLIM SPAIN, SALMA KHADRA JAYYUSI, (EDITOR) (LEIDEN, 1992), P.188;
طرخان، دولة القوط، ص66.

[7] LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.11.

مذهبا ً رسميًّا ً ووحيدا ً في البلاد، واعتبار الأريوسية كفرا ً، والحصول على دعم رجال الدين في نشر الكاثوليكية، وقد صدرت عن المجلس العديد من القوانين، التي تُلغي المعتقدات الأريوسية، وتلعن من يؤمن بها(1).

ولم يَفُتْ المجلس أن يذكر اليهود بالقانونين الآتيين: -

القانون 14، ونصه: " توافقا ً مع رأي المجلس، أمَرَ مليكنا المجيد، بأن نُدْرِجَ ضمن القوانين، أنَّه لن يسمح لليهودِ بالتزوّج من النصرانيات، ولا أنْ يتَّخذوا منهنَّ خليلات، ويجب تعميد كل الأطفال المولودين من مثل تلك العلاقات، ولن يُسمح لهم بشراءِ عبيد نصارى لخدمتهم، وإذا وجد لديهم عبيدُ مختونين، فيجب تحريرهم دون فديةٍ، وردِّهم إلى النَّصرانية، ولن يُسمح لهم بشَغل أي منصبٍ عام يمكن لهم من خلاله أن يؤذوا النصارى(2).

والقانون 24، ونصّه: "لقد قرَّرنا عدم السماح لليهودِ الذاهبين لدفن موتاهم، بترديدِ المزامير، ولكن يحقُّ لهم تطبيق عادتهم القديمة بحملِ موتاهم ودفنهم، وتبلغ الغرامة المفروضة على خرق هذا القانون ستُّ أونصات من الذَّهب، تُدْفَعُ إلى حاكم المدينة"(3).

وكان منع اليهود من امتلاكِ العبيد النَّصارى، أشد بنودِ هذين القانونين عليهم، وذلك لأنهم كانوا أصحاب تجارةٍ وإقطاعاتٍ زراعيةٍ واسعة، وبحاجةٍ ماسةٍ إلى عبيدٍ يخدمونهم، ولذلك تقدَّموا بالتماسٍ إلى ريكارد، لكي يلغي هذا البند، مقابل دفْعِ مبلغٍ من المال لخزانةِ الدولة، لكنَّه رفض طلبهم، وقد أثار برفضه هذا تقدير رجال الدين، وبعثَ إليه البابا جريجوري الأول رسالةً، يمتدحه فيها على إخلاصه لعقيدته(4).

لكنَّ هذين القانونين لم يُطَبَّقا بحزمٍ في عهدِ ريكارد الأول، الذي استمرَّ حكمه إلى سنة (601م)، وذلك في ما يبدو لانشغال رجال الدين الكاثوليك في نشْرِ وتوضيحِ تعاليم مذهبهم لمعتنقيه الجُدُّد، ولوجودِ عددٍ من الأساقفةِ الذين مازالوا يبطنون الأريوسية، ويظهرون الكاثوليكية، وتربطهم باليهود علاقات حسنة سابقا ً، فقام هؤلاء بحمايتهم، والتَسَتُّرِ عليهم(5). وربَّما قاموا بذلك لشعورهم أنَّ اليهود كانوا مثلهم ضحايا قوانين المرتّد ريكارد، أو بفعل الرشوةِ التّي تعوَّدَ اليهود على استخدامها كلَّما ضُيّق عليهم، أو لأسباب سياسية واقتصادية، منها أن ريكارد لا يرغب في إثارة اليهود ضده، أو رحيلهم وفقدان البلاد لرؤوس أموالهم، في وقت ما يزال فيه كثير من النصارى غير مقتنعين بالعقيدة الجديدة التي فرضها عليهم فرضا ً.

---

(1) يُنظر: النَّص الكامل لمحضر مجلس طليطلة الثالث عند: حتامله، أيبيريا، ص266–314.

(2) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.11-12.

(3) IBID, P.12.

(4) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL. 2, P.508.

(5) IBID, VOL.2, P.507; BROYDE, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.484.

وفي أوائل عام (589م) طالب المجلس الكنسي لنربونة جميع سكانها بمن فيهم اليهود، أن يتَّخذوا يوم الأحد يوم عطلة للجميع، وفرضت غرامة مالية على المخالف الحُرّ، والجلد على المخالفِ العبد، ومُنِعَ اليهود من التَّرنُّم بتراتيلهم أثناء المراسم الجنائزية[1].

وخلف ريكارد ثلاثة ملوك لم يهتَمُّوا بتطبيقِ قوانينه، ولم تَصْدُرْ في عهدهم أيَّة قوانين جديدة بشأن اليهود، وهؤلاء الثلاثة قَضَوْا نَحْبَهُمْ اغتيالا ً[2].

ثم خلفهم سايزبوت (SISEBUT) سنة 612م، وبدأ عهده بتذكيرِ رجال الدين وكبارِ الموظَّفين بضرورة تطبيق قوانين ريكارد الخاصَّة باليهود، ثمَّ أصدرَ مرسوما ً خاصا ً بعد شهورٍ قليلةٍ من ولايته، جاء فيه: "إنَّ الكفر اليهوديَّ الملعون، ينبغي ألاَّ يكون له تأثير على النَّصرانيةِ، لذلك نؤكَد على أنَّه ابتداءً من سنةِ حكمنا السعيدة الأولى، لن يُسمح لأي يهودي، باستخدامِ أو التسلط على أي نصراني، سواء أكان هذا النَّصْرانيُّ حُرًّا ً أم عبدا ً، مستأجرا ً أم خاضعا ً لرئاستهم، بغض النَّظَر عن أي صك ملكية يحملون بهذا الشأن، وأنَّ جميع النَّصارى الذين استُخدموا كعبيدٍ أو كخدمٍ لليهود، ينبغي نقلهم إلى سادةٍ نصارى أو تحريرهم، وسيعدم كلَّ يهوديّ قام بتهويدِ عبده النَّصراني، وتصادر أملاكه، وإذا رغب أحد أطفال الملعون في اعتناق العقيدة المقدَّسة، فسوف يُوَرّث عددا ً من العبيد الذين يصادرون من والديه، كحصة له، وعموما ً إذا تحول اليهودي إلى العقيدة المقدسة فسوف ترفع عنه كل القيود"[3].

وفي ختام مرسومه لم ينس سايزبوت أن يطلب من خلفائه في المستقبل أن يحذوا حذوه في القتال ضد الكفر، وحذر كل من ينتهك المرسوم بأن مصيره سيكون إلى الجحيم[4].

كما أصدر سايزبوت سنة 613م، قانوناً يقضي بخروج اليهود الذين رفضوا اعتناق الكاثوليكية من أسبانيا[5]، وكان صارما ً في تنفيذ قوانينه، حيث قام بسجن العديد من أثرياء اليهود، وأمر بقتل كثيرٍ منهم، ولم يتمكن أصحاب الأراضي من زراعتها، فاضطر نحو تسعين ألف يهودي إلى التنصُّر، وغادر آخرون إلى أفريقيا، وإلى بلاد الغال التي يحكمها الفرنجة[6].

ويذكر العذري سايزبوت، لكنه يسّميه ششغوط، ويتحدَّث عن تنصيره القسري لليهود، وعن العالم إيزيدور الإشبيلي الذي يسميه إشيذر العالم، حيث يقول: "وهو الذي ضمَّ اليهود إلى دين

---

(1) BROYDE, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.484; LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.12.

(2) BROYDE, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11 P.484; LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.12.

(3) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.509-510.

(4) IBID, VOL.2, P.509-510.

(5) الموسوعة اليهودية، ص286.

(6) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.13.

النصارى قسرا ً. وكان بصيرا ً بالكلام، عارفا ً بالكتاب، وكان عصره عصر علوم، وأهله أهل تهمُّم، وفي أيامه كان إشيذر [إيزيدور] العالم بعلم الكتاب"[1].

لقد أصـرَّ سـايزبوت على قوانينـه الصَّارِمة، على الرَّغمِ من احتجاجـاتِ القِدِّيس إيزيـدور الإشبيلي[2]، والبابا جريجوري الأول، وعدد من الأساقفة، حيث عَدُّوا ً التَّنصير القسريّ مناقِضا ً للنَصرانيةِ[3].

تُوفَيّ سايزبوت سنة (620م)، فخلفه ولده ريكارد الثاني، ولم تَطُلْ مدَّة حكمه، إذ توفي بعد أربعةِ أشهر[4]، وقد أظهر خلالها تسامحا ً نسبيًّا ً مع اليهـود، فرجع كثـير من المُنَصَّرين اليهود إلى دينهم الذي كانوا يعتنقونه سِرّا ً[5].

وخلفه سـوينتيلا (SUINTILA) (621-631م)، فـأظهر مزيـدا ً مـن التسـامحِ معهـم، وواصل المنصَّرون رجوعهم إلى اليهوديَّة، وعاد إلى الأندلس معظم الذين اضطّروا لمغادرتها في عهدِ سايزبوت[6]، وأطلق عليه المنصرون لقب "أبو الفقراء"، وفي عهده ازدهرت البلاد، وتقلَّصت سلطات رجال الدين، وتمَّ القضاء على آخِرِ وجود روماني في أسبانيا[7].

لم يرض رجـال الدين عن سوينتيلا، فأعانوا عليه سيسيناند (SISENANDO)، الذي حصل أيضا ً على دعمِ ملك الفرنجة داغوبيرت، وتمكَّن من اغتصابِ العرش سنة (631م). ولكي يصـيرَ حكمـه شـرعيًّا ً دعـا سـنة (633م) إلى عقد المجلس الكنسـي الرابع فـي طليطلة، فانعقد بحضـور اثنين وستين أسقفا ً، ورئاسـة أسـقف إشبيلية سـان إيزيدور (SAN ISIDOR)، وقد أعطى المجلس حكمـه صـفة شرعية ومنع ذريَّة سوينتيلا من المطالبةِ بالحكم[8]، وخـرج بعشرة قوانين، تقضي بمزيد من التضييق على اليهود[9].

توفـي سيسـيناند سـنة (636م)، فانتخـب خنتيـلا (KHINTILA) (636–640م) حسـب قانون الانتخاب الذي شرعه مجلس طليطلة الرابع[10].

وبـدأ الملك الجديد عهـده بـالتركيز علـى اضــطهادِ الـذين يظهـرون النصــرانية ويبطنـون اليهودية، ودعا إلى عقد مجلس طليطلة الكنسي السادس، فالتأم سنة (638م)، وألقى خنتيلا خطابا

---

(1) العذري، ترصيع الأخبار، ص98.
(2) مؤنس، فجر الأندلس، ص521؛
BROYDE, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11 P.484;
(3) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.12.
(4) حتامله، أيبيريا، ص243-244.
(5) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.13.
(6) S.SCH, SPAIN, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.15 P.220.
(7) BEAR, A HISTORY OF THE JEWS, VOL.1, P.19.
(8) حتامله، أيبيريا، ص246.
(9) ينظر النصوص الكاملة لهذه القوانين عند:
LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.14-18.
(10) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.513.

ً أمام المجتمعين، وعد فيه باستئصال الخيانةِ والتحيُّز لليهود، الذين يَدّعون النصرانية، وأعرب عن أمله بأن لا يبقى أيّ شخصٍ غير كاثوليكي في مملكته في الوقت المناسب، وقد أثار هذا الحرص على النصرانية والتشدُّد مع اليهود إعجاب رجال الدين في المجلس، ومنحوه لقب "الملك المسيحي"[1].

وأصدر المجتمعون في مجلس طليطلة السادس بخصوص اليهود القانون رقم3[2]، الذي يؤكد على اعتماد القوانين الكنسية السابقة، وضرورة تطبيقها، ويضيف: "لقد قررنا بعد المشاورة، أنه في المستقبل يتوجب على كل من يحصل على السيادة الملكية وقبل ارتقائه العرش أن يقسم على عدم السماح لليهود بانتهاك حرمة هذا الدين المقدس، وأن لا يقبل إغواءهم تحت أي ظرف، فيحابيهم ويسكت عن خيانتهم، إهمالا ً منه أو طمعا ً "[3].

وأمام هذه التشريعات القاسية هجر عددً من اليهود أسبانيا، بينما تظاهر معظمهم بقبول النصرانية[4]، وحاولوا أن يحصلوا على ثقةِ الملك ورجال الدين، فكتبوا إليهم تعُّهدا ً رسمّيا ً، وعدوا فيه أن يكونوا نصارى طيبين، وأعلنوا أنَّهم يؤمنون بالله الواحد في الثالوث المقدَّس، وأنه بالرغم من ضلالهم مجدَّدَا ً، إلا أنَّهم أدركوا الآن أن المسيح هو المخلَّص الذي بشَّرَت به التوراة، وبشَّرَ به الأنبياء، وبعد أن حرروا أنفسهم من شبكةِ الشيطان، فإنَّهم مستعدُّون مستقبلا ً لطاعةِ قوانين وتعاليم الكنيسة، وبعد أن

تنكروا لعاداتِ وخرافاتِ اليهود، مثل طقوس التطهير الروحي، فإنَّهم قد نفروا من الكنيست (الكنيس اليهودي) وعاشوا وارتبطوا مع النصارى، ماعدا في ما وجدوه مسيئا ً لهم من خلال النفور الطبيعي، وليس التحيز الديني، ووعدوا بأن لا تكون لهم علاقات اجتماعية، أو تزاوجٍ مع اليهود، وأنهم مستعدون لتسليم المجلس جميع المؤلفات اليهودية، ومستعدون أيضا ً لتسليم كل من ينتهك ما تعهدوا به في كتابهم، إلى المسؤولين أو الأساقفة[5].

توفي خنتيلا سنة (640م) وخلفه على العرش ولده تولجا (TULGA)، وكان شابا ً صغيرا ً ضعيفا ً، لم يرضِ طموح طبقة النبلاء، فاجتمعوا بقيادة واحد منهم هو خنداشفينتو (KHINDASVINTO)، وعزلوه وسجنوه في أحد الأديرة سنة(641م)، حيث مات، وصار خنداشفينتو هو الملك، واستمرَّ حكمه إلى سنه (652م)[6].

---

(1) IBID, VOL.2, P.515.

(2) للاطلاع على النص الكامل للقانون. ينظر: LINDO, TH JEWS OF SPAIN, P.18-19.

(3) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.19.

(4) S.SCH, SPAIN, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.15, P.221.

(5) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.515.

(6) حتامله، أيبيريا، ص247؛
LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.19.

ونَعِمَ اليهود في عهده وعهد من سبقهُ براحة قصيرة، إذ لم يتماش مع رغبة أساقفة مجلس طليطلة الكنسي، ولم يواصل خطّتهم في استئصال اليهودية، ولم يمنع أولئك الذين اعتنقوا النصرانية بالإكراه، من العودة إلى اليهودية، لكنه عاقب بشدة أبناء اليهود الذين ولدوا أثناء تنصر آبائهم، ثم تحولوا إلى اليهودية.

خلف خنداشفينتو (KHINDASVINTO) ولده ريثيسفنتو (RECESVINTO) (652–672م) حيث أوصى له والده بالعرش سنة (649م)، مخالفا ً تعليمات المجلس الكنسي الرابع لطليطلة بأن ينتخب الملك انتخابا ً، وقد أدَّى ذلك إلى غضب النبلاء، وقيام بعض الثورات والاضطرابات في عهده[1].

وقد واصل ريثيسفنتو اضطهاد اليهود والمنصرين المنافقين خلال عهده الطويل، وقد عبرَّ عن سياسته تجاههم في خطابه الذي ألقاه أمام أعضاء المجلس الكنسي الثامن في طليطلة، المنعقد في كانون الأول سنة (653م)، والذي قال فيه: "إنَّي أرغبُ في إخباركم عن حياة وعادات اليهود، لأني أدرى بالبلاد التي أحكمها، المدَنَّسة بهذه الآفة، ففي الوقت الذي استأصل فيه الله الجبار جميع أنواع الهرطقة من بلادنا، لم تبْقَ سوى هذه الفئة التي يمكن تصحيحها إما بالثَّباتِ على تقوانا أو بالانتقام"[2].

ونتيجة لهذا الخطاب أكد المجلس الكنسي الثامن على جميع القوانين الصارمة للمجلس الكنسي الرابع ضد النصارى المزيّفين، وقدّم اليهود المنصّرون إلى الملك التماسا ً أعلنوا فيه عن خضوعهم إلى الكنيسة، وقد قام بكتابته أحد يهود طليطلة المنصرين حديثا ً، واسمه أغوير (AGUIRRE)[3].

وفي ما يأتي النص الكامل لهذا الالتماس: -

"إلى سيدنا الرحيم، والمبجل الملك ريكسفينثوس، نحن الموقعون أدناه، من كل يهود طليطلة، نتقدم إليك بالتحية. نحن نذكر أنه في الأوقات السالفة، وبأمر من الملك خنتيلا، تعهدنا بصدق كتابيا ً، بأننا سنعتنق الدين النصراني ونطبق شعائره، ولكن آثام وضلالات آبائنا تقف حائلاً دون إيماننا المخلص بربنا يسوع المسيح [كذا]، وممارسة شعائر النصرانية، ولهذا السبب فإننا الآن وبكامل إرادتنا ورغبتنا، نعلن لسموّكم بأننا مسؤولون عن أنفسنا وزوجاتنا وأبنائنا، وأننا من الآن فصاعدا ً، لن نمارس أية عادة يهودية، ولن نرتبط بأي شكل كان مع اليهود الرافضين للهداية، ولن نتزوج من أقربائنا من الدرجة السادسة، ولن نقترف إثم الزنا مع أي امرأة من عوائلنا، وأنه من الآن فصاعدا ً، سنتزوج نحن وأبناؤنا وذرياتنا من الإناث والذكور من

---

(1) IBID, P.20.
(2) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.516.
(3) IBID, VOL. 2, P.516.

النصارى. وأننا لن نختتن، أو نقيم عيدا ً للفصحِ أو أيٍ من الأعياد الأخرى، ولن نمتنع عن تناول اللحوم وفقا ً للعادة اليهودية، ولن نحيى ونفعل مثلما يحيون ويفعلون، لكننا وبكل الإيمان المخلص والتقوى والرغبة، نعلن عن إيماننا بالمسيح ابن الرب الحي [كذا]، كما علمنا الرسل والمبشرون الذين نعترف بهم ونقدّسهم. وسوف نعتنق جميعا ً وبإخلاص الدين النصراني المقدَّس، وسنمارس شعائره في الأعيادِ والزواجِ والطعامِ وكل العادات الأخرى دون أي تردد أو تحفّظ، أو أي سبب يحول دون تحقيق وعدنا لكم. أما عن لحم الخنزير، فإننا نتعّهدُ أنه على الرغم من عدم اعتيادنا على تناوله، فإننا ودون اعتراض أو تردد سنأكل أي شيء يمزج أو يطبخ معه، ولو تمَّ اتهام أيا ً منا بخرق المذكور أعلاه، أو فعل أي شيء يتنافى مع الدين النصراني، سواء بالقول أو الفعل، أو التهاون في أداء ما تعهدنا به، فإننا نقسم باسم الأب والابن وروح القدس، الذين هم رب ثالوث واحد [كذا]، بأننا سنرجمُ بالحجارة، ونحرق كل من يبلغنا عنه القيام بخرق لأي مما ذكر أعلاه. وإذا ما رغب سموّكم العطوف بالإبقاء على حياته فإنه سيصبح عبدا ً على الفور، ولكم أن تمنحوه لمن تشاءون مع كُلّ أملاكه، وأن تفعلوا به وبأملاكه ما ترونه ملائما ً، ليس فقط من منطلق السلطة التي تمتلكونها كملك للبلد، ولكن بموافقتنا بالفعل والقول، التي نقدّمها لكم عن طيب خاطرٍ، بتاريخ الثاني عشر من غُرّةِ شهر آذار في العام السادس من حكمكم سنة (655م)"[1].

إلاَّ أن رجال الدين الكاثوليك لم يثقوا بصدق هذا الالتماس، وفرضوا رقابة شديدة على المنصَّرين اليهود[2].

كما فرض المجلس الكنسي التاسع في طليطلة المنعقد سنة (655م) على جميع المنصَّرين اليهود أن يحضروا أمام الكنيسة عندما يقوم الأسقف بأداءِ المراسيمَ المقدسة، خلال الأيام النصرانية واليهودية معا ً، حتى يستطيع التأكد بنفسه من أن اليهود أطاعوا المراسيم النصرانية، وامتنعوا عن يهود الكنيست، ومن يتخلف عن الحضور منهم في مثل هذه الأيام يتعرُ َض للجلد، أو يؤمر بالصَّوْم للتكفير عن خطيئته[3].

لكن من الواضح أن كثيرا ً من رجال الكنيسة لم يخلصوا في تنفيذ قوانين المجالس الكنسية، إذ لم يصمدوا أمام رشاوى اليهود وإغراءاتهم، حيث أعلن المجلس الكنسي التاسع في طليطلة بأسى سنة (656م) أن بعض الكهنة يبيعون العبيد النصارى إلى اليهود، مخالفين القانون الأساسي للمملكة النصرانية[4]، ودعا إلى إصدار قانون ضد هذه التجارة[5]، أما ريثيسفنتو فقد ظلَّ

---

(1) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.34-35;
ينظر: DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL. 2, P.517;
ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.15, P.221، S.SCH, SPAIN

(2) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2 , P.517.

(3) IBID, VOL.2, P.517.

(4) ينظر: IBID, VOL.2, P. 518; S.SCH. SPAIN, ENCYCLOPEDIA, VOL.15, P.221.

مخلصا ً لقسمهِ حيث قرر أن يدخل في قانون الدولة قانون المجلس الكنسي وجميع قرارات الملوك السابقين ضد اليهود.

إنَّ قسوة القوانين الصادرة ضد يهود أسبانيا، وحرص ملوك الأسبان، ومجالسهم الكنسية على إصدارها، وتنفيذها، ومتابعتها، والتذكير المستمر بضرورة تطبيقها، لا يمكن أن يكون بسبب حقد قديم فقط على اليهود لقتلهم المسيح عليه السلام –كما يعتقد النصارى–، أو لاتهامهم أمه مريم عليها السلام بالزنا، أو لقتلهم عددا ً من القديسين النصارى الأوائل، أو بسبب جرائمهم البشعة التي ارتكبوها ضد السكان في تمرداتهم على الرومان، على أهمية هذه الأسباب في صنع كره متراكمٍ لليهود. ولكن أعتقد أنَّ هناك ممارسات كثيرة مارسها يهود أسبانيا في عهد القوط، وظلوا يمارسونها بالرغم من كل هذه القوانين. وهذه الممارسات هي التي كانت تنبه ملوك القوط، ومجالسهم الكنسية، وتذكرهم باستمرار بضرورة وضع حد ليهودِ بلدهم. وأميل إلى أنها ممارسات اقتصادية واجتماعية، أساسها استحلال اليهود أكل أموال غيرهم بالباطل، ومعتقداتهم التي تجعلهم يحتقرون ويهينون كل الأمم غير اليهودية. فضلا ً عن الأسباب السياسية، كمشاركتهم في بعض المؤامرات التي قامت ضد ملوك القوط[1].

وصل إلى العرش بعد موت ريثيسفنتو سنة (672م) وامبا (VAMBO)، الذي بدأ حكمه بالقسم الذي يتضمن فقرة تحتم عليه التضييق على اليهود، وأمر بطرد جميع اليهود غير المنصَّرين من البلاد، ونُفَذَّ القانون بحزم، فتوجَّه الرافضون للتعميد إلى أفريقيا والبرانس وناربونه[2].

وحدث تمرُّدُ على وامبا قاده هيلدرخ حاكم مدينة نيم، وقام يهود نربونه بتقديم المساعدة للمتمردين، الذين زادت قوتهم عندما انضمَّ إليهم القائد الذي أرسله وامبا لقمعهم. لكنَّ وامبا تمكن من القضاء عليهم بعد سنةٍ من القتال، وعاقب اليهود بطردهم من نربونه[3].

تمكَّن أرفيخيو (ERVIGIO) من الوصول إلى العرش وإزاحة وامبا سنة (680م)[4]، ودعا سنة (681م) إلى عقد مجلس طليطلة الكنسي الثاني عشر، لكي يُبارك رجال الدين منصبه الذي اغتصبه من وامبا، فعقد المجلس برئاسة جِليانوس (JULIANUS) اليهودي المرتد، وكبير أساقفة طليطلة، وكان صديقا ً حميما ً للملكِ، ومحرضا ً له على اليهود[5].

---

(5) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P. 20.

(1) عن مشاركة اليهود في بعض التمردات ضد ملوك القوط. ينظر: DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.519-520.

(2) حتامله، أيبيريا، ص248؛ LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.21.

(3) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.519-520.

(4) حتامله، أيبيريا، ص248؛ DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.520.

(5) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.523.

ولقد أظهر أرفيخيو في هذا المجلس حماسا ً شديدا ً ضدَّ اليهود، وذلك في ما يبدو من أجل كسب رضا رجال الدين، حيث وقف أمامهم خطيبا ً، وقال: "انهضوا، أتوسل إليكم أن تنهضوا، وفرَّقوا شبكة الكافر، وصَحَّحوا عادات الآثمين، وأظهروا حماسكم ضِدَّ الخونة، والأهمُّ من ذلك، استأصلوا جذورَ الآفةِ اليهودية"[1].

ورجا الملك أعضاء المجلس أن يدرسوا بجدية التشريعات الَّتي أعدَّها ضِدَّ كفر اليهود، وحذَّرهم من التَّساهُلِ مع اليهودية، حتى لا يكونوا مسؤولين أمام الله عن آثامِ هذه الأُمَّة[2].

وقد درس المجلس هذه التشريعات، وأقرَّها، وكانت العقوبات الرَّادعة هي أكثر ما يُميِّزُ هذه التشريعات، إذ أنَّ عقابَ اليهودي الذي يَمتنِعُ أو يَمْنَعُ أَبناءه أو خدمه من التعميد هو مئة جلدةٍ، إضافة إلى قلع شعر رأسه، ونفيه من البلاد بعد مصادرةِ جميع ممتلكاته[3]. أما المرأة المتنصَّرة التي تسمح بتهويدِ ولدها، فعقابها جَدْعُ أنفها، ومصادرة أملاكها[4]. ويعاقب من يمارس أعمال الزراعةِ أو يحيك الصُّوفَ في الأعيادِ النصرانيةِ، بمئة جلدةٍ، مع قَلْعِ الشَعر، وكذلك يفعلُ بالعبيد والخادمات إذا انتهكوا حرمة أعياد النصارى، وبالذين يرفضون تناول طعامهم خصوصا ً لحم الخنزير[5].

ولم يكتف جليانوس الأكثر غلظةً على بني جلدته، بدوره في تشريعاتِ مجلس طليطلة الكنسي الثاني عشر، بل حاول التشكيك في معتقداتهم، فناقشها، وفندها، ودحضها في كتابٍ سمّاه "حول دليل الحقبة السادسة ضد اليهود"، ولأنَّه فقد الثقَة بيهودِ عصره، أهداه إلى الملكِ وكتب في الإهداء "إذا كان هذا الكتاب لا يُقَوِّمُ اليهودَ فليستفدْ منه النصّارى على الأقل"[6]. وهذا يؤكد أثر الخلاف العقائدي بين النصارى واليهود في وجود العداء بينهم واستمراره.

انتهى عهد إيرفيخيو، فخلفه إجيكا (EGICA) سنه (687م)[7]، وعقد المجلس الكنسي الخامس عشر في طليطلة سنة (688م)، ولم يصدُرْ عنه أيَّ ذكّرٍ لليهود[8].

وفي سنة (693م) تمَّ عقد مجلس طليطلة الكنسي السادس عشر، وقد ناقش المجلس مدى فاعلية القوانين السابقة ضد اليهود، فتبيَّنَ له عقمها، إذ ظلَّ معظم اليهود المنصَّرين يكتمون يهوديتهم، ويمارسونها سرا ً، ويورثونها لأبنائهم، وقد دفع ذلك إجيكا أن يجرب مع اليهود نوعا ً من الترغيب، فخفّفَ كثيرا ً من القيودِ عن المنصَّرين، وأعطى الذين يُظهرون صدقا ً والتزاما

---

(1) IBID, VOL.2, P.520.
(2) IBID, VOL.2, P.520.
(3) IBID, VOL.2, P.520-521.
(4) IBID, VOL.2, P.521.
(5) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS,, VOL.2, P.522.
(6) IBID, VOL.2, P.521; BROYED, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.485.
(7) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.23.
(8) IBID, P.23- 25.

ً بالنّصرانية الكثير من الامتيازات، بينما أبقى القوانين الخاصّة باليهود[1]، ولكن يمكن القول أنَّ إجيكا أيضا ً انضمَّ إلى قافلة الفاشلين في تنصير يهود أسبانيا، إذ ظلَّ معظم اليهودُ على دينهم، بين مُعْلِنٍ لليَهوديِة ومبطنٍ لها، ولم يستفِدْ من إغراءات إجيكا إلا اليهود الذين أجادوا تمثيل دور النّصراني الصادق الملتزم[2].

وظلَّ اليهود يعيشون هذا الوضع المحتمل نسبيّا ً إلى أن انعقد المجلس الكنسي السابع عشر في طليطلة سنة (694م)، وأعلن إجيكا أمام أعضائه أنَّه على الرغم من أفضاله على اليهود، ووعوده الكثيرة إذا أخلصوا للنّصرانية، إلا أنّهم قابلوا ذلك بالجحود[3] حيث "علمنا مؤخّرا ً من شهودٍ موثوقين أن اليهود دخلوا في مفاوضات مع يهود أجانب في البلاد التي وراء البحر لغرض التقدُّم نحو الشعب النصراني"[4].

لقد كان هذا الإعلان الكارثة الكبرى التي حلت باليهود في أسبانيا، فعلى إثره أعلن المجلس في (9–11-694م)[5]، وبمصادقة الملك، القانون الثامن الذي يقضي باستعباد جميع يهود الأندلس، بما فيهم المنصَرّين المنافقين، ومصادرة جميع ممتلكاتهم، ويلزم أسيادهم النصَارى بمراقبتهم، ومنعهم من ممارسة طقوسهم، كما يقضي بانتزاع أطفالهم منهم، إذا بلغوا سن السِابّعة، وتوزيعهم على عائلات نصرانية ليتنصروا في أحضانها، ويُزَوّجوا عندما يكبروا من النَّصارى[6].

وأرى أنّ هذا القانون قدْ نُفذ، لأن إجيكا عاش بعد إصداره نحو سبع سنوات، وعندما توفي سنة (82هـ=701م)، وخلفه ولده غيطشة (WITIZA)، أوقف كثيرا ً من القيود المفروضة على اليهود، وسمح لهم بالعودة إلى أسبانيا[7]، واستمرَّ حكمه إلى أن قتل سنة (90هـ=709م)، وتمكن لذريق (LODRIGO) من الوصول إلى العرش، وظل يصارع منافسيه على الحكم، إلى أن جاء الفتح الإسلامي سنة (92هـ=711م)، فصرعه، وصرع معه كلَّ عهود الظّلمِ والظلماتِ التي خيّمت على أسبانيا قرونا ً طويلة من الزّمان[8].

---

(1) IBID, P.23–25; DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.525–526.
(2) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.526.
(3) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.526.
(4) IBID, VOL.2, P.526.
(5) S. SCH, SPAIN, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.15, P.221.
(6) LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P. 26;
(7) BROYED, SPAIN, THE JEWS ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P. 485.
(8) حتامله، أيبيريا، ص253 – 254.